

## الباب الرابع

### العناصر الخلقية في المدنية

لما كان المجتمع يستحيل قيامه بغير نظام ، والنظام لا يكون بغير قانون ، فلنا أن نعمتها قاعدة من قواعد سير التاريخ ، بأن قوة التقاليد تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة القوانين ، كما أن قوة الغريزة تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة الأفكار ؛ وبعض القواعد لا بد منه حتى يعيش الناس بعضهم بعضاً ، وقد تختلف هذه القواعد في الجماعات المختلفة ، لكنها ينبغي أن تكون في جوهرها واحدة في الجماعة الواحدة ؛ وقد تكون هذه القواعد مواضع اتفق عليها الناس أو تقاليد أو أخلاقاً أو قوانين ؛ فأما المواضع فهي صور من السلوك وجدد الناس أنها نافعة لحياتهم ، والتقاليد مواضع قبلتها الأجيال المتعاقبة ؛ والأخلاق هي التقاليد التي ترى الجماعة ألا غنى عنها لسعادتهم وتقدمهم بعد أن تعلمت من الانتخاب الطبيعي الذي يبقى على الصالح ويزيل الفاسد خلال ما يصادفه الناس من تحارب يُجرونها في الحياة فيخطئون هنا وهناك ، هذه التقاليد الحيوية أو الأخلاق في الجماعات البدائية التي لا تعرف قانوناً مكتوباً تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ؛ وتكسب النظام الاجتماعي أطراً ثابتاً ؛ وهذه التقاليد إذا ما انقضت عليها الزمن ونخلع عليها سحره شيئاً فشيئاً ، فإنها بطول تكرارها تصبح للفرد طبيعة ثانية ؛ إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار - وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقي الذي اختاره داروين ليكون أظهر فاصل يفرق بين الحيوان والإنسان<sup>(١)</sup> والضمير في مراحل تطوره العليا يصبح وعياً اجتماعياً - أي شعور الفرد بأنه ينتمي إلى جماعة معينة وأنه مدين لها بشيء من الولاء والاحترام ؛ وما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكل ، ثم تعادل كل جماعة مع كل أعظم فالمدنية ، بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق ؛

## الفصل الأول

### الزواج

بمعنى الزواج - أصوله البيولوجية - الشيوعية الجنسية  
زواج التجربة - زواج الجماعة - زواج الفرد - تعدد  
الزوجات - قيمته في تحسين النسل - الزواج من غير  
العشيرة - الزواج مقابل الخدمة - وبالأسر -  
وبالشراء - الحب البدائي - وخليفة الزواج الاقتصادية

أول مهمة تؤديها التقاليد التي هي قوام التشريع الخلقى لجماعة من  
الجماعات ، هي أن تنظم العلاقة بين الجنسين لأنها مصدر دائم للنزاع  
والاعتداء وإمكان التدهور ؛ والصورة الأساسية لهذا التنظيم الجنسي هي  
الزواج الذي يمكن تعريفه بأنه اتحاد العشيرين للعناية بالنسل ؛ وهو تنظيم  
يختلف ويتغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى لقد اجتاز  
خلال تاريخه كل صورة ممكنة وكل تجربة ممكنة ، من العناية التي كان  
يبدونها البدائيون بالنسل دون أن يكون بين العشيرين اتحاد في المعيشة ، إلى  
ما نراه في عصرنا الحديث من اتحاد العشيرين في المعيشة بغير نسل يعنيان به .

كان الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان ؛ فبعض الطيور فيما يظهر يعيش  
معيشة الأزواج التي تنسل في رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق ، وبين الغورلا  
والأورانجوتان يدوم اتصال الوالدين حتى نهاية فصل الإنسال ، ولاتصالها هذا  
علامات كثيرة تشبه فيه بنى الإنسان ، وكل محاولة تحاولها الأنثى في اتصالها بذكر  
آخر ، يعاقبها عليها عشيرتها عقابا صارما (٢) . ويقول « دى كرسپني »  
De Crespigny عن الأورانج في بورنيو « إنها تعيش في أسر : الذكر والأنثى  
وصغيرهما » يقرر الدكتور سافدج Dr. Savage عن الغورلا « إنه من المألوف

أن ترى الوالدين جالسين تحت شجرة يتسليان بالفاكهة يأكلانها وبالمسمر  
يَسْتَمِرَّان به ، بينما يأخذ أبناؤهما في القفز حولها والوثب من غصن إلى غصن  
في مزح وزناط»<sup>(٣)</sup> وإذن فالزواج أعمق في التاريخ من بنى الإنسان .

والمجتمعات التي تخلو من الزواج نادرة ، لكن الباحث الخبيث يستطيع  
أن يجد منها عدداً يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من الفوضى الجنسية التي  
تسود الحيوان الأدنى إلى صنوف الزواج التي أخذ بها الإنسان البدائي ؛ ففي  
« فوتونا » Futuna و « هواي » معظم الناس لم يتزوجوا إطلاقاً<sup>(٤)</sup> ، وأهل  
« لوبو » Lubu تعاثروا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد ، ولم يكن في  
رعوسهم فكرة الزواج ، وكذلك بعض القبائل في بورنيو كانت تعيش  
حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذي يربط الزوجين ، ولذلك  
كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالاً مما نراه بين الطيور ، ولدى بعض  
شعوب روسيا البدائية « كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز ، بحيث  
لم يكن لامرأة زوج معلوم » .

ولقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا بأنهم لا يصطنعون أنظمة الزواج  
في حياتهم ، بل تراهم « يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملاً بغير  
ضابط<sup>(٥)</sup> » ؛ لكن هذا « التأميم للنساء » الذي يقابل الشيوعية البدائية في  
الأرض والطعام ، زال في مرحلة مبكرة بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا  
قليل ، ومع ذلك فقد لبثت بعض ذكرياته عالقة في الأذهان في صور  
مختلفة : في شعور كثير من الشعوب الفطرية بأن وحدانية الزوجة - التي  
يعرفونها بأنها احتكار رجل واحد لامرأة - ينافي الطبيعة ويجافي الأخلاق<sup>(٦)</sup> ،  
وفي الأعياد التي نقيمها على فترات معلومة ونتحلل فيها من القيود الجنسية  
موقتاً ( ولا يزال هذا الشعور موجوداً بصورة ضعيفة في بعض أعيادنا ) ،  
وفي مطالبة المرأة بأن تُسَلِّم نفسها لأي رجل يطلبها قبل أن يُسَمَّح لها  
بالزواج<sup>(\*)</sup> - كما هي الحال في « معبد مايلتتا » Mylitta في بابل - ،

(\*) راجع ذلك في الجزء الخاص ببابل في أجزاء هذا الكتاب .

وفي عادة إعاره الزوجة ، وهي عادة ضرورية بالنسبة إلى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون ؛ وفي حق الليلة الأولى ، وهو حق كان يتمتع به الشريف في أوائل العهد الإقطاعي في أوروبا ، وربما كان الشريف في ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو أنه يجوز للشريف أن يتفرض بكمارة العروس قبل أن يؤذن للعريس بمباشرة الزواج (٦) .

ثم حلت بالتدريج محل هذه العلاقات التي لم تعرف التحديد ألوان من اتحاد الرجل والمرأة كانت بمثابة التجريب ، فعند قبيلة « أورانج ساكاي » Orang Sakai في ملقا ، كانت المرأة تعاشر كل رجل من رجال القبيلة حيناً ، حتى إذا ما أتمت الدورة بدأت من جديد (٧) ، وبين قبيلة « ياكوت » Yakuts في سيبيريا ، وقبيلة « بوتوكودو » Botocudos في جنوب أفريقيا ، والطبقات الدنيا في التبت ، وكثير غير هذه من الشعوب ، كان الزواج تجريبياً خالصاً بمعنى أن كلاً من الزوجين له الحق في فض العلاقة إذا شاء وبغير أن يبدي لذلك سبياً أو يطالب بالسبب ؛ وعند قبيلة « بوشمن » « يكنى أقل خلاف بين الزوجين لانحلال الزوجية ، ولا يلبث الزوجان أن يجد كل منهما زوجاً آخر » ، وعند قبيلة « داماترا » Damatras فيما يروى « سير فرانسز جولتن Sir Francis Galton - « يتبدل الزوج مرة كل أسبوع تقريباً ، وقلما استطعت أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث - من ذا كان زوجاً مؤقتاً لهذه السيدة أو تلك في وقت معين » وكذلك في قبيلة « بايلا » ينتقل النساء من رجل إلى رجل ويتشركن زوجاً لينتقلن إلى زوج آخر بمحض اختيارهن ؛ والفتيات اللاتي كيدن لا يجاوزن العشرين ، تجد للواحدة منهن في كثير من الحالات أربعة أزواج أو خمسة كلهم أحياء » (٨) وكلمة الزواج في هواي معناها في الأصل « تجربة » (٩) ، وقد كان الزواج في تاهيتي منذ قرن حراً من القيود وينحل طغرسب ما دام الزوجان لم يتنسلا ، أما إن أنجبا طفلاً فلهما أن يقتلاه دون أن يقع عليهما لوم من المجتمع ،

أو هما يقومان على تربيته وبذلك يبدأان حياة دائمة الصلوات ، بحيث يتعهد الرجل للمرأة أن يعولها في مقابل رعايتها للطفل ، التي أخذتها الآن على عاتقها (١٠) .

وكتب « ماركوپولو » عن قبيلة في آسيا الوسطى ، كانت تسكن إقليم بين Peyn ( وهي تعرف الآن باسم كيريا ) Keriya ) في القرن الثالث عشر ، يقول : « إذا سافر رجل متزوج بحيث يتعدّ عن بلده ليغيب في رحلته عشرين يوماً ، فلزوجته الحق - إذا شاءت - أن تتزوج من رجل آخر ، والمبدأ صحيح كذلك بالنسبة للرجال ، فيتزوجون حيث أقاموا » (١١) وهكذا ترى الأساليب الجديدة التي أدخلناها في زواجنا وأخلاقنا حديثاً قديمة في أصلها . يقول « ليترنو » Letourneau عن الزواج : « لقد جرّبت كل صورة من صور الزواج ، مما يتفق مع طول بقاء المجتمعات الهمجية والوحشية ، ولا يزال بعضها اليوم قائماً لدى أجناس مختلفة ، دون أن يطوف بأذهان أهلها أية فكرة من الأفكار الخلقية التي تسود أوروبا عادة » (١٢) ، فهناك تجارب أجريت في العلاقة بين الزوجين إلى جانب التجارب التي أجريت لاختبار مدة الزواج ؛ ففي حالات قليلة نرى « زواجاً جماعياً » بمعنى أن تتزوج طائفة من رجال ينتمون إلى جماعة من طائفة من النساء تنتمين إلى جماعة أخرى ، بحيث يكون الزواج جماعياً بين الطائفتين (١٣) ؛ وفي التبت مثلاً كانت العادة أن تتزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة (١٤) ؛ ولقد روى قيصر عادة شبيهة بهذه في بريطانيا القديمة (١٥) وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته ، وقد شاعت عند اليهود الأقدمين وغيرهم من الشعوب القديمة (١٦) ، وضاق لها صدر « اونان » ضيقاً شديداً .

فما الذي حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التي كان الزواج فيها أقرب شيء إلى الفوضى ، زواجاً فردياً ؟

إنه مما لا شك فيه أن الشهوة الجسدية ليست هي التي دفعت الناس إلى نظام الزواج ، لأنك لا تجد في الكثرة الغالبة من الشعوب الفطرية إلا قليلاً - ذلك إن وجدت شيئاً على الإطلاق - من القيود المفروضة على العلاقات الجنسية قبل الزواج ؛ ولأن الزواج بكل ما يسببه من مضايقات نفسية وبكل ما فيه من قيود ، يستحيل عليه أن ينافس الشيوعية الجنسية في إشباعها للميول الجنسية عند الإنسان ؛ كلا وليس نظام الزواج الفردي بمهيئ في بدايته جواً لتربية الأطفال يبدو بالبداية أنه خير لتربيتهم من عناية الأم وأسرتها وعشيرتها ؛ إذن فلا بد أن يكون الدافع إلى الزواج وتطوره عوامل اقتصادية قوية الأثر ، وأرجح الظن ( وهنا ينبغي أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلاً ) أن هذه العوامل التي دفعت إلى نظام الزواج كانت مرتبطة بنشأة نظام الملكية .

جاء الزواج الفردي نتيجة لرغبة الرجل في أن يسترق لنفسه رقيقاً بضمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبته عن توريث ممتلكاته لأبناء غيره من الرجال ؛ وظهر من صور الزواج صورة تبيح للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فاتخذت صورة تعدد الأزواج للزوجة الواحدة - كما هي الحال في قبيلة «تودا» Todas وبعض قبائل التبت (١٧) ، وإنما تظهر هذه العادة حينما زاد عدد الرجال على عدد النساء زيادة كبيرة (١٨) ، لكنها عادة سرعان ما تنتفي على يد الرجل القوي الغلاب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشراء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه . ألا وهي تعدد الزوجات للزوج الواحد ؛ ولقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن تعدد الزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمد ابتكاراً لم يسبق إليه ، لكنه في الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال ، لأنه النظام الذي ساء العالم البدائي (١٩) وهناك من الأسباب عدّة عملت كلها على تعميم هذا النظام ونشره : أولها أن حياة الرجال في المجتمع الأول كانت أشد عنفاً وأكثر تعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت في الرجال عليه في النساء ، واطراد

الزيادة في عدد النساء يضع أمام المرأة اختياراً بين حالتين : فإما تعدد الزوجات ، وإما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء ، لكن مثل هذه العزوبة للمرأة لا تنتظر إليها بعين الرضى شعوباً تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية في الوفاة ، ولذا ترى أمثال تلك الشعوب تزدرى المرأة العانس والمرأة العقيم ، وثانى هذه الأسباب أن الرجال يميلون إلى التنوع ، فالأمر كما عبّر عنه زنوج أنجولا أنهم : « لم يكن في وسعهم أن يأكلوا دائماً طعاماً واحداً » ، كذلك يجب الرجال أن تكون عشيراتهم في سن الشباب ، والنساء يكتهان بسرعة في المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كنّ أحياناً يُحَبِّدُن تعدد الزوجات ، حتى يباعِدُن بين فترات الولادة دون أن يُنْقِصُنَ عند الرجل شهوته وحبّه للنسل ، وأحياناً ترى الزوجة الأولى ، وقد أهدتها عبء العمل ، تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل للأسرة أطفالاً يزيدون من إنتاجها وراثتها (٢٠) ، فالأبناء عند هؤلاء الناس كسب اقتصادى ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزوجة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح في رأس المال ؛ ففي الأسرة الأبوية ، لا تكون الزوجة وأبناؤها إلا بمنزلة العبيد لرأس الأسرة وهو الرجل ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد مالا ؛ وقد كان الفقير يتزوج من زوجة واحدة ، لكنه كان ينظر إلى ذلك نظرتة إلى وصمة العار . وينتظر اليوم الذى يعلوفيه إلى المنزلة العالية التى ينزلها صاحب الزوجات الكثيرة فى أعين الناس (٢١)

ولا شك أن تعدد الزوجات لاعم حاجة المجتمع البدائى فى ذلك الصدد أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال ؛ وقد كان لتعدد الزوجات فضل فى تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الذى نأخذ به اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأحكامهم فى العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا أقل عدد من الأبناء ، ترى العكس فى ظل تعدد

الزوجات ، الذى يتيح لأقدر الرجال أن يظفروا - على الأرجح - بنحير النساء ، أن ينسلوا أكثر الأبناء ؛ ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً ، بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ فى الزوال فى بلاد الشرق إلا فى عصرنا الحاضر ؛ لأنه قد تأمرت على زواله بعض العوامل ؛ فحياة الزراعة المستقرة حدثت من عنف الحياة التى كان يحياها الرجال وقلدت من أخطارها ، فتقارب الجنسان عدداً ؛ وفى هذه الحالة أصبح تعدد الزوجات المكشوف ، حتى فى الجماعات البدائية ، ميزة تتمتع بها الأقلية الغنية وحدها (٢٢) أما سواد الناس فلا يجاوزون الزوجة الواحدة ؛ ثم يخفون وطأة ذلك على نفوسهم بالنزاع بينما ترى أقلية أخرى آثرت العزوبة راضية أو كارهة ، فعادلت بهذا الامتناع ما يستولى عليه الأغنياء من زوجات كثيرات ، وكان عدد الجنسين كلما اقترب من التعادل زادت الغيرة فى الرجل على زوجته ، والحرص فى الزوجة على زوجها ؛ لأنه لما كان العدد قريباً من التساوى فى الجنسين تعذر على أقوىاء الرجال أن يعددوا زوجاتهم ، لأنهم فى مثل هذه الحالة لا يجدون كثرة من الزوجات إلا إذا اغتصبوا زوجات الآخرين أو من سيكن زوجات للآخرين ، وإلا إذا أساءوا ( فى بعض الحالات ) إلى زوجاتهم ؛ نقول إنه فى مثل هذه الحالة يتعذر تعدد الزوجات بحيث لا يستطيعه إلا أوسع الرجال حيلة ، هذا إلى أنه لما ازداد تراكم الثروة فى أيدي بعض الرجال ، وكره هؤلاء أن يبعثوا ثروتهم هذه فى توريث عدد كبير من الأبناء لا يصيب الواحد منهم إلا قدر ضئيل ، آثر هؤلاء أن يفرقوا بين الزوجات « فزوجة رئيسية » ومحظيات ، حتى لا يقسم الإرث إلا أبناء الزوجة الرئيسية ، ولبت الزواج على هذه الحالة فى آسيا حتى عصرنا الذى عاصرناه بجيلنا ، ثم أصبحت الزوجة الرئيسية بالتدريج هى الزوجة الواحدة ، وأما المحظيات فقد تعرضن لإحدى حالتين ، فلما بقين خليلات وراء الستار ، وإما عدل عنهن إطلافاً ، وذلك فضلاً عن أثر المسيحية حين دخلت

عاملاً جديداً ؛ فجعلت نظام الزوجة الواحدة في أوربا - بدل تعدد الزوجات - هو النظام الذي يرتضيه القانون ، وهو الصورة التي تظهر فيها العلاقة الجنسية ؛ لكن نظام الزوجة الواحدة - شأنه شأن الكتابة ونظام الدولة - نظام صناعي نشأ والمدنية في وسطى مراحلها ، وليس هو بالنظام الطبيعي الذي يتصل بالمدنية في أصول نشأتها .

ومهما يكن أمر الصورة التي يتخذها الزواج فقد كان إجباراً بين الشعوب البدائية كلها تقريباً ، ولم يكن للرجل الأعزب منزلة في المجتمع ، أو عهداً مساوياً لنصف رجل فحسب (٢٣) . كذلك كان إجباراً على الرجل أن يتزوج من غير عشيرته . ولسنا ندرى إن كانت هذه العادة قد نشأت لأن العقل البدائي داخله الشك فيما يترتب على زواج الأقارب من سوء النتائج أو لأن التصاهر بين الجماعات أوجد تحالفاً سياسياً مفيداً بينها ، أو زاد هذا التحالف قوة إن كان موجوداً بالفعل ، وبهذا زاد التنظيم الاجتماعي تقدماً وقلل من أخطار الحروب ؛ أو لأن انتزاع زوجة من قبيلة أخرى قد أصبح معدوداً بين الناس من علامات الرجولة التي اكتمل نضوجها ؛ أو لأن نشأة الصبي بين قريباته يقلل من قيمتهن في عينه ، وبعدها القريبات عنه يزيد في سحرهن ؛ وعلى كل حال فقد كان هذا التحديد في اختيار الزوجة عامماً شاملاً لكل الجماعات الأولى تقريباً ؛ وعلى الرغم من أن الفراعنة والبطالسة والإنكا قد وفّقوا إلى تحطيمه بأن أقبلوا على زواج الأخ بأخته ، إلا أنه ظل قائماً بين الرومان كما يعترف به القانون الحديث ؛ وهذا التقليد لا يزال له أثره في سلوكنا - عن شعور أو لا شعور - حتى يومنا هذا .

فكيف كان يتاح للرجل أن يظفر بزوجه من قبيلة أخرى ؟ لما كانت الأسرة التي ترأسها الأم هي النظام السائد ، كان يُطلب إلى الزوج في كثير من الحالات أن يعيش مع عشيرة المرأة التي أراد زواجها ؛ فلما تطور نظام الأسرة الأبوية ، سُمِحَ للخطيب أن يأخذ عروسه معه إلى عشيرته ، على شرط أن يقيم

فترة معلومة قبل ذلك في خدمة أبيها ، فمثلاً خدم يعقوب لابان في سبيل زواجه من « لبيحة » و « راشيل » (٣٤) لكن الخطيب كان أحياناً يقتضب الأمر باصطناعه للقوة الصريحة الغاشمة ؛ وكان من حسنات الرجل ومميزاته أن يأخذ زوجته من أهلها قسراً ، فذلك يجعل منها امّة رخيصة من جهة ، كما يستولدها عبيداً من جهة أخرى ، وهي إذا ما وُلدت له هؤلاء الأطفال العبيد ، ازدادت بعبوديتها له صلةً وربطاً ؛ ومثل هذا الزواج الذي يتم بطريق الاغتصاب ، لم يكن القاعدة الشائعة ، لكنه كان يقع في العالم البدائي حيناً بعد حين ، فالنساء عند هنود أمريكا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، ولقد كان هذا السبب للنساء من الشيوخ بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم في بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة ، فلا يفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ؛ ولبت السلاف في روسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى القرن الماضي (\*) (٢٥) ؛ ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في قيام العريس بدور المعتصب لعروسه في بعض احتفالات الزواج (٢٧) ؛ وعلى كل حال فقد كانت نتيجة طبيعية لما كان بين القبائل من حروب كادت لا تنقطع ، كما كانت بداية طبيعية للحرب الناشئة بين الجنسين التي لا تسكن بالمهادنة إلا فترات قصيرة ، ولا تنام فتنها إلا نوماً قلقاً بغير أحلام .

فلما زادت الثروة بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة - أو مبلغاً من المال - ثمناً لابنته ، من أن يخدم عشيرة غير أهله للحصول عليها ، أو يخاطر بما عسى أن يترتب على اغتصابها من قتال وإراقة للدماء ؛ ونتيجة ذلك أن أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالدين ، هو القاعدة

(\*) يظن بريفو Briffault أن الزواج بالاغتصاب كان مرحلة انتقال من نظام الأسرة التي تسودها الأم إلى النظام الأبوي في الأسرة ، ذلك أن الرجل لما رفض العيش مع عشيرة زوجته اضطرها إلى العيش بين أهله (٢٦) ، ويرى « لبير » Lippert أن الزواج من امرأة غريبة عن الأسرة كان بديلاً سلمياً لزواج الاغتصاب (A٢٦) كما تطورت السرقة بالتدريج إلى تجارة .

السائدة في المجتمعات الأولى (٢٨) وحَدَّثَتْ خلال ذلك حلقات وسطى تمَّ فيها الانتقال ؛ فأهل مالينزيا كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، لكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا الأسرة الزوجة مبلغاً من المال ؛ كذلك عند بعض أهالي غانة الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة ، وبينما هما في محبتهما ، يرسل أصدقاءه ليساووا أباهما في ثمنها (٢٩) ؛ وإنه لمَّا ينير طريق التفكير أمامنا أن نذكر كيف يسهلُ التغلب بالمال على مقاومة لوضع من الأوضاع الخلقية ؛ فيروي عن أم من قبيلة « ماورى » Maori أنها أخذت تبكي بصوت عالٍ ، وتستنزل أمرَّ اللعنات على الشاب الذي اختطف ابنتها ، حتى جاءها هذا الشاب بهدية هي غطاء من الصوف ، فقالت ؛ « هذا كل ما أردته ، أردت أن أظفر بهذا الغطاء الصوفي فجعلتُ أصبح بالبكاء » (٣٠) ، لكن ثمن العروس كان يزيد عادة على غطاء من الصوف ، فثمنها عند الهوتنتوت ثور أو بقرة ، وعند قبيلة « كرو » Croo ثلاثة أبقار وشاة ، وعند « الكفير » يتراوح ثمنها من ست أبقار إلى ثلاثين ، حسب المنزلة التي تنزلها أسرة الفتاة في المجتمع ، وبين « التوجو » Togos ثمنها ستة عشر ريالاً تدفع نقداً ، وستة ريالات تدفع عيئاً (٣١)

والزواج بالشراء يسود أصقاع أفريقيا جميعاً ، وهو النظام المألوف في الصين واليابان . وكان شائعاً في الهند القديمة وعند اليهود القدماء ، وفي أمريكا الوسطى قبل عهد كولمبس ، وفي بيرو ، بل لا تزال أمثلة منه في أوربا اليوم (٣٢) وهو تطور طبيعي لنظام الأسرة الأبوية ، لأن الوالد يملك ابنته ، وفي وسعه أن يتصرف فيها بما يراه مناسباً لا يُحدِّد حتمته في هذا إلا حدود ضئيلة ؛ ويعبر عن هذا هنود أورنوكو بقولهم إن الخطيب يجب عليه أن يدفع للوالد ثمن تربيته لفتاة سينتفع بها هو (٣٣) ويحدث أحياناً أن تعرض الفتاة في معرض للعرائس أمام جماعة من الرجال قد يكون منهم لها خطيب ؛ وكذلك من عادة أهل الصومال أن يُزيّنوا

العروس أفخر الزينة ، ويعرضوها على ظهر جواد أو ماشية على قدميها ،  
في جوّ يفوح بالعبور لعلها تستثير الخطّاب فيدفعوا فيها ثمناً أغلى (٣٤)  
وليس لدينا مدوّن واحد يدل على أن امرأة عارضت في زواجها بالشراء ،  
بل الأمر على نقيض ذلك ، كان النساء يفاخرن بما يدفع لهن ثمناً ،  
ويحتقرن المرأة التي تسلم نفسها في الزواج بغير ثمن (٣٥) لأنهن يعتقدن أن  
الزواج الذي يعقد النّحب أو اصره بغير ثمن مدفوع ، يكون فيه الزوج  
الشرير كاسباً كسباً عظيماً لم يدفع لقاءه شيئاً (٣٦) ومن جهة أخرى كان من  
المألوف أن يردّ والد العروس ما دفعه العريس هدية أخذت تزداد قيمتها  
على مرّ الأيام حتى قاربت ما يدفعه العريس (٣٧) ، ثم أخذ الآباء الأغنياء  
يتوسعون تدريجاً في هذه الهدايا ، لكي ييسروا لبناتهم الزواج ، حتى ظهر  
نظام المهر تدفعه العروس لخطيبها ، وهكذا حلّ شراء والد العروس لزوج ابنته  
محل شراء الخطيب لزوجته ، أو قل إن الشرايين يسيران جنباً إلى جنب (٣٨) .

في شتى هذه الصور والصنوف التي يتخذها الزواج ، لا تكاد تقع فيها على  
أثر من الحب والعاطفة ؛ نعم قد تجد حالات قليلة من زواج الحب بين قبيلة  
الپاپوا في غينا الجديدة ، وكذلك قد تجد بعض حالات الحب في غيرها من الشعوب  
البدائية ( والنّحب هنا معناه إخلاص متبادل لا منفعة متبادلة ) لكن هذه الحالات  
النادرة التي تصادفها لأشأنها بالزواج ، ففي أيام البساطة الأولى كان الرجال  
يتزوجون ليشتروا عملاً رخيصاً ويكسبوا أبوة مربّحة ويضمنوا وجبات منتظمة  
من الطعام ، يقول « لاندِر » Lander : « يحتفل أهل « ياريبا » Yariba  
بالزواج دون أن يثير ذلك في نفوسهم أقل اهتمام ، فتفكير الرجل في حيازة زوجة  
لا يزيد على تفكيره في قطع سنبله من القمح ، لأن النّحب أمر ليس له وجود (٣٩)  
لأنه لما كانت العلاقة الجنسية أمراً مباحاً قبل الزواج ، فإن عاطفة الرجل  
لا تجد من السدود ما يخزنها ، وقلما يكون لها أثر في اختيار الزوجة ؛ وللسبب  
نفسه ، أعني تلاحق الشهوة وتنفيذها بغير فاصل من زمن ، ليس لديهم ما يبرر

أن يجلس الشاب مفكراً في طوية نفسه ، في عاطفته التي احتبست في صدره والتي من أجل احتباسها أخذت تُزيّن له الحبيب المُشْتَهَى ، مما يؤدي عادة إلى الحب العاطفي عند الشباب ؛ إن مثل هذا الحب وظهوره مرهون بالمدنيّة التي أقامت الأخلاقَ سدوداً أمام الشهوة ، وهذا إلى أن الثروة وازديادها قد مكّنت بعض الرجال أن ينفقوا ، وبعض النساء أن يصنعن ، ما يقتضيه الحُبُّ العاطفي من علامات الترف والرقّة ؛ فالبدائيون أفقر من أن يعرفوا عاطفة الحب ، ولذلك قلّما تجد في أغانيهم شعراً يدور حول الحب ؛ ولما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة « أَلْجُونْكِوِن » Algonquins لم يجدوا كلمة في لغتهم تعبر عن « الحب » ؛ ويصف الواصفون قبيلة الهوتنتوت بأنهم « باردون في الزواج ولا يأبه أحد من الزوجين بالآخر » وكذلك في ساحل الذهب « لا يظهر بين الزوج وزوجته من علائم الحب شيء حتى ولا مظاهره الخارجية » وقل هذا كذلك في أهل أستراليا البدائيين ؛ يقول « كاييه » Caillie إذ هو يتحدث عن زنجي من السنغال : « سألت بابا لماذا لا يمرح أحياناً مع زوجته ، فقال إنه لو فعل لتعذر عليه بعدئذ أن يملك زمامهن » ؛ ولما سئل رجل من أهل أستراليا الوطنيين لماذا أراد أن يتزوج ، فأجاب صادقاً بأنه إنما أراد الزوجة لتهدئ له الطعام والشراب والحطب ، ولتحمل له المتاع أثناء الرحيل<sup>(٤٠)</sup> والتقبيل الذي لا يستغنى عنه الأمريكيون فيما يظهر ، لا تعرفه الشعوب البدائية ، أو هم يعرفونه معرفة الشيء المزدري<sup>(٤١)</sup> .

وعلى وجه التعميم ، نقول إن « الهمجي » يزاوّل أموره الجنسية بروح فلسفية ، لا يكاد يزيد عن الحيوان فيما يساوره من قلق ميتافيزيقي أوديني ؛ إنه لا يفكر في الأمر بينه وبين نفسه ، كلا ولا يطير بعاطفته في سماءه ، بل الجنس عنده أمر طبيعي كالطعام سواء بسواء ، ولا يحاول قط أن يُزيّن لنفسه الدوافع ، فليس في الزواج عنده شيء من التقديس ، وقلّما يسرف في الاحتفال به ، بل هو

في رأيه عملية تجارية صريحة ، ولا يخطر بباله أبداً أنه مما ينجله أن يُخضع عاطفته للاعتبارات العملية في اختياره لزوجته ، بل العكس هو أولى عنده بإثارة الحجل ، ولو استباح لنفسه من الغرور ما نستطيعه نحن لأنفسنا ، لتسألنا عما يبرر التقليد الذي جربنا عليه وهو أن نربط رجلاً بامرأة إلى آخر الحياة تقريباً ، لا لشيء سوى أن الرغبة الجنسية قد ربطت بينهما ببرقها الخاطف لحظة واحدة من الزمن ، فالزواج عند الرجل البدائي لا يُنظر إليه على أساس التنظيم الجنسي ، بل على أنه تعاون اقتصادي ولذلك كان يريد من المرأة ، بل المرأة تريد من نفسها أن تكون نافعة نشيطة أكثر منها رشيقة جميلة (ولو أنه يقدر هذه الصفات فيها) ، إذ لا بد أن تكون له كسباً اقتصادياً ، لا خسارة لا كسب من ورائها ، وإلا لما فكر «الهمجي» الواقعي في الزواج إطلاقاً ، الزواج عنده شركة تدرُّ ربحاً ، لا ضرب من ضروب الدعارة الخاصة ، إنه طريقة تجعل الرجل والمرأة إذا ما تعاونا في العمل ، أنجح في الحياة منهما أو عمل كلي منهما مستقلاً عن زميله ؛ فحيثما وجددت في تاريخ المدنية مرحلة لا تكون فيها المرأة كسباً في زواجها للرجل ، فاعلم أن الزواج قد انهار بناؤه ، وأحياناً تنهار المدنية بانهياره .

## الفصل الثاني

### اخلاق الجنس

العلاقات قبل الزواج - الدعارة - العفة - البكارة -  
المعيار المزدوج - الحفر - نسيبه الأخلاق - الدور  
الذي يلعبه الحفر من الوجهة البيولوجية - الزنا -  
الطلاق - الإجهاض - وأد الأطفال - الطفولة - الفرد

إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هي دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن  
الغريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبتان الزواج ،  
وهي تهدد في كل لحظة بإحداث الاضطراب في النظام الاجتماعي لإلحاحها  
وشدتها وازدراءها للقانون وانحرافاتهما عن جادة الطبيعة ؛ وأولى مشكلاتها  
تقع قبل الزواج ، أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست  
الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى في عالم الحيوان ؛ فرفض الأنثى  
للذكر ، إلا في فترات التهييج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان في دائرة  
أضيق جداً من مثيلتها عند الإنسان ذي الشهوة العارمة ، فالإنسان يختلف  
عن الحيوان - كما يقول بومارشيه - Beaumarchias في أنه يأكل بغير  
جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر في كل فصول السنة ؛  
وإنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها ، في  
تحريم الاتصال بالنساء في أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام وجدت  
الاتصال الجنسي قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير في الجماعات البدائية الأولى ؛  
فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالاً حراً دون أن  
يكون ذلك عائقاً للزواج ، وكذلك عند قبيلة پاپوا في غينيا الجديدة تبدأ الحياة  
الجنسية في سن مبكرة جداً والقاعدة قبل الزواج هي الشيوعية الجنسية (٤٣) وكذلك  
توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج في قبيلة «السويوت» Soyots في سيبيريا ،

و (إيجوروت) Igorots في الفلبين ، وأهالي بورما العليا ، والكفير واليوشمن في أفريقيا ؛ وقبائل نيجيريا ويوغندا وجورجيا الجديدة وجزائر مري وجزائر أندمان وتاهيتي وبولينزيا وأسام وغيرها (٤٤) ؛

في مثل هذه الظروف لا يُنتظر أن نجد غُهرًا كثيرًا في المجتمع البدائي ، فهذه المهنة التي هي « أقدم المهن » حديثة نسبيًا لأنها لم تنشأ إلا مع المدنية مع ظهور الملكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ؛ نعم لقد تجد هنا وهناك فتيات يعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصلن مبلغاً يقدمنه إلى المعابد ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كان التشريع الخلق في الإقليم يوافق عليه باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدتين أو لإشباع آلهة جائعة (٤٥)

وأما العفة فهي الأخرى مرحلة جاءت متأخرة في سير التقدم ، فاللهي كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عقيم (٤٦) ، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائناً لها في هذا السبيل ، لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك في عقمها ، ويبدش بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التي قامت قبل ظهور الملكية ، كانت تنظر إلى بكاره الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ؛ حتى كان العريس من قبيلة « كامشادال » Kamchadal إذا ما وجد عروسه بكرًا ثارت ثورته و « طفق بسبب أمها سبباً صريحاً لهذه الطريقة المهمة التي قدمت بها ابنتها إليه » (٤٧) ، وفي حالات كثيرة كانت البكاره حائلاً دون الزواج ، لأنها تلقى على الزوج عبئاً ثقيلاً على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذي يقضى عليه بالألأيريق دم أحد من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحياناً أن تُسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة لينزيل عنهن هذا العائق الذي يحول بينهن وبين الزواج ، ففي التبت تبحث الأمهات في جدت عن رجال يفضون بكاره بناتهن ، وفي « ملبار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون

المارة في الطريق أن يؤدوا لهنّ هذه المكرمة ، لأنهن ما دمن أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج ، وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تُسَلِّمَ نفسها لأضياف العرس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفضّ له بكاره عروسه ، وقبائل أخرى في الفلبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً ضخماً تكون مهمته أن يؤدي هذا العمل نيابة عن اعزموه الزواج (٤٨) من الرجال .

فما الذي غيرَ النظر إلى البكاره بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت خطيئة ؟ فجعلها بذلك عنصراً من عناصر التشريعات الخلقية في كل المدنيات العالية ؟ لا شك أنها المِلْكِيَّة ، حين قام بين الناس نظامها ، هي التي أدت إلى هذا التحول ؛ فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالملك الذي أحسه الرجل لإزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج ؛ وازدادت قيمة البكاره لأن العروس في ظل نظام الزواج كانت تشتري بثمن أعلى إن كانت بكرًا من ثمن أختها التي ضعفت إرادتها ، إذ البكر يُبشّر ماضيها بالأمانة الزوجية التي أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى في أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ الخشية أن يورثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح (٤٩) .

وأما الرجال فلم يَدُرُّ في خواطرهم قط أن يقيدوا أنفسهم بمثل هذا القيد ، ولست تجد جماعة في التاريخ كله قد أصرت على عفة الذكر قبل الزواج ، بل لست تجد في أية لغة من اللغات كلمة معناها الرجل البكر (٥٠) .

بهذا قضى على البنات وحدهن أن يعانين الخوف على بكارتهن ، فأثرفهن هذا الوضع على صورتهن ؛ فقبيلة « توارج » تعاقب البنت أو الأخت التي حادت عن الجادة بالموت ، وزنوج النوبة والحبيشة والصومال وغيرها يضعون على أعضاء التناسل للبنات حلقات أو أقفالاً تمنع أداء العملية الجنسية ، ولا يزال شيء كهذا قائماً إلى يومنا هذا في بورما وسيلان (٥١) ؛ كذلك نشأت ضروب من عزل

البنات عزلاً لا يتيح لهن أن يُغترين الرجال أو يجيئن الإغراء من الرجال ؛ والآباء الأغنياء في بريطانيا الجديدة يحجزون بناتهم خلال الخمس السنوات الخطرة في أكواخ يقيمون عليها حارسات من العجائز الفضليات ، فلا يسمح للبنات بالخروج أبداً ثم لا يؤذن لأحد برويتهن إلا الأقارب (٥٢) ؛ وليس بين هذه التصرفات كلها ، وبين « البرودة » التي تلبسها المسلمات والهندوس إلا خطوة واحدة ، وإن هذه الحقيقة لتذكرنا مرة أخرى بقسوة المسافة بين « المدنية » و « الهمجية » .

وجاء الخفّر مصاحباً للبكارة ولسيطرة الوالد على أسرته ؛ فهناك قبائل إلى يومنا هذا لا يأخذها الحياء من ترك أجسادها عارية (٥٣) ، لا بل إن بعضها ليخجله لبس الثياب ؛ ولقد اهتزت جنبات أفريقيا كلها بالضحك حين التمس « لثنجستون » من مُضيفيه السود أن يضعوا على أجسادهم بعض الثياب قبل قدوم زوجته ؛ وكانت « ملكة بالوندا » Balonda عارية من قمة رأسها إلى إحصص قدمها حين عقدت مجلسها من أجل « لثنجستون » (٥٤) ، وبين القبائل أقلية صغيرة تباشر العلاقة الجنسية علناً دون أن يداخلها أثر من الحجل (٥٤) ؛ وكان أول ظهور الحياء عند المرأة حينما أحست أنها محرمة أيام حيضها ؛ وكذلك حين قام نظام الزواج بالشراء ، وأصبحت بكارة البنت تدر الزبيح على أبيها ، فولدَ عزل الفتاة وإرغامها على البكارة شعوراً عندها بضرورة احتفاظها بعفتها ؛ أضف إلى ذلك أن الحياء عند الزوجة في ظل نظام الزواج بالشراء ، هو شعورها بتبعية مالية لإزاء زوجها بأن تمتنع عن أية علاقة جنسية خارجية ليس من شأنها أن تعود عليه بشيء من الربح ؛ وما هنا ظهرت الملابس ، إن لم تكن الدوافع إلى التزين وإلى الوقاية قد أنشأتها بالفعل قبل ذلك ؛ ففي قبائل كثيرة لا تلبس المرأة ثياباً إلا بعد زواجها (٥٥) علامة على حيازة زوجها لها حيازة تامة ، وحاثل لا يخول دون سائر الرجال أن تأخذهم شهامة الرجولة ؛ فالرجل البدائي لا يوافق على الرأي الذي

ذهب إليه مؤلف « جزيرة البطريق » من أن الثياب تشجع على الدعارة ؛ وعلى كل حال فليست العفة متصلة بالثياب صلة ضرورية ، فيحدثنا الرحالة في أفريقيا أن الأخلاق هناك تتناسب في تقدمها تناسباً عكسياً مع كمية الثياب<sup>(٥٦)</sup> فواضح أن ما يستحي من فعله الناس إنما يعتمد على أساس التحريم الاجتماعي والتقاليد التي تسود جماعتهم ، فإلى عهد قريب كانت المرأة الصينية ينجلها أن تعرى عن قدمها ، والعربية ينجلها أن تكشف عن وجهها ، والمرأة من قبيلة « تاورج » ينجلها أن تبدي فيها ، على حين أن النساء في مصر القديمة ، وفي الهند في القرن التاسع عشر ، وفي « بالي » في القرن العشرين ( حتى أتاهن السائحون الشهبانيون ) لم ينجلهن أبداً أن يكشفن عن أقدامهن .

لكن لا ينبغي أن ننهي من ذلك إلى نتيجة هي أن الأخلاق ليست بذات قيمة لأنها تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ، وأنه من الحكمة أن نقيم الدلائل على سعة علمنا بالتاريخ بأن نطرح من فورنا التقاليد الأخلاقية في مجتمعنا ، فالعلم القليل بالأجناس البشرية يُعرض للخطر ؛ نعم إنه من الحق في الأساس - كما قال أناتول فرانس في سخرية - « إن الأخلاق هي مجموعة أهواء المجتمع »<sup>(٥٧)</sup> ؛ وكما قال « أناقارسيس » Anacharsis اليوناني ، إنه إذا ما جمعنا كل التقاليد التي تقدسها جماعة ما ، ثم حذفنا منها كل التقاليد التي تمجها جماعة أخرى ، ما بقي لنا منها شيء ؛ لكن ذلك لا يدل على تفاهة الأخلاق في قيمتها ، إنما يدل على أن النظام الاجتماعي قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى ؛ ولا يقلل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعي ، فلا بد من قواعد يراعها الناس في اجتماعهم بعضهم ببعض ، كأنما الاجتماع لعبة لا مندوحة للاعبين عن مراعاة قواعدها إن أرادوا المضي في اللعب ، لا بد للناس أن يعلموا كيف يتصرف زملاؤهم في ظروف الحياة الجارية ؛ ومن هنا كان إجماع الناس في المجتمع الواحد على اضطناع أخلاق معينة في سلوكهم لا يقل أهمية من مضمون هذه

الأخلاق نفسها ؛ فإذا تصدينا لتقاليد جماعتنا وأخلاقها بالتفكير والخروج عليها ، حين نستكشف في صدر شبابنا أن تلك التقاليد والأخلاق نسبية ، فإنما نكشف بذلك عن يفاعه عقولنا ؛ ولو أمهلنا أنفسنا عقداً آخر من عقود العمر ، تكشف لنا بعدئذ أن التشريع الخلقى الذى ارتضته الجماعة - وهو يلخص خبرة الأجيال المتعاقبة - فيه من الحكمة أكثر مما يمكن لأستاذ أن يشرحه لطلابه في سلسلة محاضراته في الجامعة ؛ فسنبتين عاجلاً أو آجلاً ما يثير في صدورنا القلق ، وهو أنه حتى هذا الذى لم نستطع فهمه قد يكون صواباً ؛ فالأنظمة والمواضعات والتقاليد والقوانين التى هى قوام المجتمع المتعدد الجوانب ، إنما هى من صنع مئات الأجيال وبلايين العقول ، ولا يجوز لعقل واحد أن يتوقع لنفسه فهمها في مدى الحياة القصير ، دع عنك مدى عشرين عاماً ؛ فيحق لنا إذن أن نتم بقولنا إن الأخلاق نسبية لكنها ضرورة لا غنى عنها .

فلما كانت التقاليد القديمة الأساسية تمثل الانتخاب الطبيعى في طرائق حياة المجتمع بعد قرون قضاهها الإنسان في محاولة وخطأ ، فلا بد لنا أن نرجح بعض الفائدة الاجتماعية ، أو بعض القيمة في مساعدة الجنس على البقاء ، في البكارة والحياء على الرغم من أنهما نسيبان ، وأنهما مرتبطان بنظام الزواج بالشراء ، ومن أنهما سبب في الأمراض العصبية ؛ فالحياء أو الخفتر كان بمثابة الكمين في ميدان القتال تلوذ به الفتاة إذا ما تقدم إلى خطبتها الخاطبون ، لتختار من بينهم أصلحهم ، اختياراً قائماً على روية ، أو لتضطر مخاطبها أن يهذب من خصاله قبل أن يظفر بها ؛ على أن السدود التى أقامها خفتر النساء في وجوه شهوات الرجال ، هى نفسها التى ولدت عواطف الحب الشعرى الذى رفع قيمتها في عينيه ؛ واصطناع النظام الذى يهتم بالبكارة قد أدى إلى زوال السهولة واليسر الفطرى الذى كانت تتم به الحياة الجنسية البدائية ، لكنه من ناحية أخرى ، بحيلولته دون التطور الجنىسى في سن مبكرة ، والأمومة قبل أوانها ، قد ضيق الفجوة بين النضج الاقتصادى والنضج

الجنسى - ولو أن هذه الفجوة تميل إلى الاتساع السريع كلما تقدمت المدنية - وربما أعان نظام البكارة بهذا الذي ينشأ عنه من تأجيل للحياة الجنسية ، ربما أعان على تقوية الفرد جسماً وعقلاً ، وعلى إطالة أمد المراهقة والتدريب ، وبهذا ينتهى إلى رفع مستوى الجنس البشرى .

لما تطورت الملكية ، تدرج الزنا فأصبح من الكبائر بعد أن كان معدوداً من الصغائر ؛ فنصف الشعوب البدائية التي نعرفها لا تعلق على الزنا أهمية كبرى (٥٨) وعلى ذلك فنشأة الملكية لم تؤدِّ فقط إلى مطالبة المرأة بالوفاء التام لزوجها ، لكنها كذلك ولدت في الرجل شعوراً بالملكية إزاء زوجته ؛ حتى حين يعبرها لضيفه ، فهو إنما يفعل ذلك لأنها ملكه جسداً وروحاً ؛ ثم كمل هذا الاتجاه في تصور المرأة حين ألزموها أن تهبط إلى قبر زوجها مع سائر أدواته ؛ وعُدَّ الزنا في الأسرة الأبوية مساوياً للسرقة (٥٩) كأنما هو في أساسه اعتداء على الامتلاك ، وتفاوت عقاب الزنا في شدته من أخف العقوبات إلى أقساها ، من عدم المبالاة عند القبائل البدائية إلى بقر بطون الزانيات وإخراج أمعائهن عند بعض قبائل الهنود في كاليفورنيا (٦٠) وبعد أن مرَّت الجريمة بقرون طويلة من العقاب ، قرَّت في النفوس فضيلة الوفاء الزوجي عند الزوجة قراراً مكيناً وولدت لها ضميراً في فؤاد المرأة يرهاها ؛ حتى لقد أدهشت قبائل هندية كثيرة غزاتهم بما لزوجاتهم من فضيلة الوفاء التي يستحيل عندهن التفريط فيها ؛ وتمنى كثير من الرحالة أن يجيء يوم على النساء في أوروبا وأمريكا يساوين فيه من حيث الوفاء الزوجي زونجات الزولو والپاپوا (٦١) .

وكان الوفاء الزوجي أيسر على أهل « پاپوا » ، لأنهم كعظم الشعوب البدائية لا يقيمون إلا قليلاً من العوائق التي تعوق الزوج عن طلاق زوجته ، حتى أن الاتحاد الزوجي أوشك ألا يزيد بين الهنود الأمريكيين على عدد قليل من السنين ؛ ويقول في ذلك « سكولكرافت » Schoolcraft : « إن نسبة كبيرة من الرجال

الكهول أو الشيوخ ، قد اتصلت بزوجات كثيرة حتى أن هؤلاء ليجهلون أبناءهم المنتشرين في أرجاء إقليمهم» (٦٢) ؛ «إنهم يسخرون من الأوروبيين لاكتفاء الرجل منهم بزوجة واحدة مدى حياته ، وهم يرون أن «الروح الطيبة» قد زاوجت بين الزوجين ليكونا سعيدين ، فلا ينبغي أن يظلا معاً إلا إذا تلاعت فيهما الاتجاهات والميول» (٦٣) ؛ لهذا ترى الرجال من قبيلة «تشروكي» Cherokees يبدلون الزوجة ثلاث مرات أو أربعاً كل عام ، وأما أهل «ساموا» فيبقون على زوجاتهم ثلاث أعوام لأنهم يميلون إلى المحافظة (٦٤) ؛ لكن لما جاءت الزراعة بما تقتضيه من حياة مستقرة ، امتد أمد الروابط الزوجية ؛ ففي ظل النظام الأبوي للأسرة ، كان الطلاق عملية لا تتفق وقواعد الاقتصاد في رأى الرجل ، لأن طلاق الزوجة معناه في حقيقة الأمر تفريط في أمة تعود على سيدها بالربح (٦٥) ولما أصبحت الأسرة هي نواة الإنتاج في المجتمع ، تحرث الأرض وترعاها بالتعاون ، ازدادت ثراء كلما ازدادت نفراً وتماسكا ، على فرض المساواة في سائر الظروف بينها وبين ما هو أصغر منها من الأسر ؛ وتبين للناس ما هو في صالح المجتمع من أن الرابطة الزوجية ينبغي أن تدمر بين الزوجين حتى يفرغا من تربية أصغر الأبناء ؛ ولكنهما إذا ما بقيا معا حتى هذه السن ، لم يعد لدهما من نشاط الحياة ما يدفعهما إلى حب جديد . وتصبح حياة الزوجين كأنها نفس واحدة لما اشتركا فيه معا من عمل وضغاب ؛ ولم يعد الطلاق إلى اتساع نطاقه من جديد ، إلا بعد انتقال الإنسان إلى الصناعة في المدن ، وما تبع ذلك من تخفيض لعدد أفراد الأسرة وقلة في خطرهما .

ويمكن القول بصفة عامة إن الرجال خلال عصور التاريخ كلها أحبوا كثرة الأطفال ؛ ولذا جعلوا الأمومة مقدسة ؛ بينما النساء اللاتي يقاسين مرارة النسل ، قد اضطربت في أنفسهن ثورة خفية على هذا التكليف الثقيل ، فاستخدمت ما لا عدد له من الوسائل ليتخففن من أعباء الأمومة ؛ فالرجال البدائيون

لا يابهون عادة لعدد السكان أن يزيد إلى غير تحديد ، لأن الأبناء مرجحون لهم في ظروف الحياء السوية ، ولئن أسف الرجل على شيء فذاك أنه يستحيل عليه أن يستولد امرأته البنين بغير البنات ؛ أما المرأة فتقابل هذا من ناحيتها بالإجهاض ووأد الأطفال وضبط النسل - فحتى هذا الأخير قد كان يحدث آناً بعد آناً في الشعوب البدائية<sup>(٦٦)</sup> ؛ وإنه لما يثير الدهشة أن نرى شدة الشبه بين الدوافع التي تحرك المرأة « الهمجية » والدوافع التي تحرك المرأة « المتعدية » إلى اتقاء الولادة ، وهي أن تفلت من عبء تربية الأطفال ، وتحتفظ لنفسها بقوام فيه فتوة الشباب ، وتتقى العار الذي يلحقها من أمومة لطفل بجاءها من غير زوجها ، وتجتنب الموت ، وغير هذه من شتى الدوافع ؛ وأبسط الوسائل التي تتبعها المرأة لتحديد الأمومة أن ترفض الرجل إبان الرضاعة التي قد تطول مدى أعوام كثيرة ، ويحدث أحياناً - كما هي الحال عند هنود تشيني - أن تأتي المرأة حملاً ثانياً إلا إذا بلغ طفلها الأول عامه العاشر ؛ وفي بريطانيا الجديدة لم تكن المرأة لتنسل الأطفال قبل مرور عامين أو أربعة أعوام بعد زواجها ؛ ويلاحظ أن قبيلة « جوايكورو » Quaycuro في البرازيل كانت تتناقص تناقصاً مطرداً ، لأن نساءها لم يقبلن حمل الأطفال قبل أن يبلغن الثلاثين ؛ والإجهاض شائع بين أهل « بابوا » فيقول نساءهم في ذلك : « عبء الأطفال ثقيل فلقد سئمتهم ، لأنهم ينهكون قوانا » والنساء في بعض قبائل « الماوري » Maori يستعملن أعشاباً أو يسبن في أزحامهن اعوجاجاً ليقين الحمل<sup>(٦٧)</sup> .

وإذا فشلت المرأة في إجهاض نفسها ، فقد بقي لها أن تثد طفلها ، ومعظم الشعوب الفطرية تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا جاء شائها أو مريضاً أو سيفاحاً ، أو إذا ماتت أمه عند ولادته ؛ وكأنما يجد الإنسان مبرراً مقبولاً في كل وسيلة تؤدي به إلى ضبط عدد السكان ضبطاً يتناسب مع مواد الرزق ، فترى كثيراً من القبائل التي تقتل الأطفال إذا ما ظنوا أنهم ولدوا في ظروف لا يحالفها السعد ؛

فقبيلة « بُندي » Bondei تخنق المولود إذا نزل إلى الدنيا برأسه أولاً ؛ وقبيلة « كامشادال » تقتل الطفل إذا ولد في جو عاصف ، وقبائل مدغشقر تترك الطفل الوليد في العراء حتى يموت أو تغرقه في الماء أو تئده حياً إذا ما أطل على العالم في مارس أو إبريل ، أو يوم الأربعاء أو جمعة أو في الأسبوع الأخير من أى شهر ، وإذا ما ولدت المرأة توأمين في بعض القبائل ، عند ذلك برهاناً على اقترافها الزنا ، لأنه يستحيل على رجل واحد أن يكون والد لطفلين في آن واحد ، وعلى ذلك فأحد الاثنين أو هما معاً يقضى عليهما بالموت ؛ وأد الأطفال كان شائعاً بين البدو بصفة خاصة لأنهم كانوا يسببون لهم إشكالا في ترحالهم الطويل ؛ فقبيلة « بانجرانج » Bangarang في فكتوريا كانت تقتل نصف أطفالها عند الولادة ؛ وقبيلة « اللنجوا » Lenguas في إقليم شاكو من پاراجواى لم تكن تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من طفل واحد كل سبعة أعوام ، وتقتل مازاد على ذلك ، وقبيلة « أبيبون » Abipones حددت عددها على نحو ما فعل الفرنسيون ، وذلك بأن تنشئ كل أسرة ولداً واحداً وبنثاً واحدة ، وكان نسل غير ذلك يقتل فور ولادته وإذا حلت ببعض القبائل مجاعة أو تهددتهم مجاعة ، قتلوا أطفالهم حديثي الولادة أو أكلوهم ، وكانت البنت عادة هي التي تتعرض للوآد ، وكانت أحياناً تعذب حتى تموت بحجة أن ذلك يجعل روحها تعود إلى الحياة في جسد صبي إذا ما عادت إلى الحياة من جديد<sup>(٦٨)</sup> ، وكان وأد الأطفال لا يشوبه في أعينهم بشاعة ولا يستتبع تأنيباً من الضمير ، لأن الأم فيما يظهر لا تحسُّ الحب الغريزي لأطفالها عند ولادتهم مباشرة .

أما إذا سمح للطفل بالحياة أياما قلائل ، فقد أمِنَ القتل ، لأنه سرعان ما تثور في الوالدين عاطفة الأبوة أو الأمومة لما يريانه فيه من بساطة وضعف ، وفي معظم الحالات ، كان الطفل يلقى من الحب في معاملته من أبويه البدائين ما لا يلقاه الطفل على وجه العموم عند من هم أرقى في المدنية من هؤلاء<sup>(٦٩)</sup> ، ولأن

اللبن أو غيره من ألوان الطعام الطرى لم يكن يتوفر لديهم ، كانت الأم تقوم على رضاعة طفلها من عامين إلى أربعة أعوام ، بل قد تمتد الرضاعة أحياناً إلى اثني عشر عاماً (٧٠) ، فيحدثنا رحالة عن ولد أخذ في التدخين قبل أن يُفطم عن الرضاعة (٧١) وكثيراً ما كان الصبي يقف لِعَبِّه مع لداته ، أو يقف ما عسى أن يؤديه من عمل ، لترضعه أمه (٧٢) . والمرأة الزوجية تحمل رضيعها على ظهرها إبان عملها ، فإذا أرادت له الرضاعة قذفت له - أحياناً - بثديها عَبْرَ كتفيها (٧٣) ؛ ولم تكن تربية الآباء لأبنائهم بسيئة النتائج على الرغم من إهمالهم إياهم إهمالاً شديداً ذلك لأنهم كانوا يتركون الطفل في سن مبكرة يلاقى نتائج بلاهته ووقاحته ومشاكسته ، فكان الطفل يزداد علماً كلما ازداد تجربة ؛ وفي المجتمع الفطري يشتد الحب بين الآباء لبنيهم والأبناء لآبائهم (٧٤) .

والطفولة في الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض ، ونسبة الوفاة فيهم عالية ؛ والشباب في تلك الجماعة قصير الأمد ، لأن الزواج كان يبدأ في سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية ، وسرعان ما يضيع الفرد في ثقال المهام التي يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها ، فالنساء يُذَوِّين حمل الأطفال والرجال يذويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير ، فقدت قواهما ، فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص الفرديته ، لا في أول الحياة ولا في نهايتها ؛ فالفرديّة - كالحريّة - ترف جاءت به المدنيّة إذ لم يحدث إلا في فجر التاريخ أن تحرر من ربقة الجوع والنسل والقتال عددٌ من الرجال والنساء يكفي لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن .

## الفصل الثالث

### الأخلاق الاجتماعية

طبيعة الفضيلة والرذيلة - الجشع - الحيانة - العنف - القتل -  
الانتحار - انخراط الفرد في جماعة - الإيثار - الكرم - أوضاع  
السلوك - تحديد القبيلة للأخلاق - الأخلاق البدائية بالقياس إلى  
الأخلاق الحديثة - الدين والأخلاق

من بين واجبات الوالدين أن يتقوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق ، لأن  
الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً  
كلما تلقى جانباً من التراث الخلقى والعقلي الذي خلفه له الأسلاف ؛ والطفل  
من الوجهة البيولوجية سيئ الإعداد للمدنية ، لأن غرائزه تهيئه للمواقف  
الرئيسية والتقليدية ولا تشمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة  
أكثر من موافقتها للمدنية ؛ كل رذيلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية في  
تنازع البقاء ، ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تراكمت في وجودها بعد زوال  
الظروف التي كانت تستلزم وجودها - فلدست الرذيلة - إذن - ضرباً من  
السلوك الزاقي ، بل هي في العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذي  
حل مكانه سلوك جديد ؛ فمن الغايات التي ينشد تحقيقها التشريع الخلقى  
أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التي لم تتغير - أو التي تتغير ببطء - مع  
حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة .

لبث الجشع وحب التملك والحيانة والقسوة والعنف أموراً نافعة للحيوان  
والإنسان مدى أجيال بلغت من طولها حداً تعذر معه على كل ما لدينا من قوانين  
وتربية وأخلاق ودين أن تزيلها إزالة تامة ؛ ولا شك أن لبعضها - حتى في  
يومنا هذا - قيمة في حفظ البقاء ، فالحيوان يُتخَم نفسه طعاماً لأنه لا يعلم متى

عساه أن يجد القوت مرة أخرى ، وهذا الارنياب في ظروف المستقبل هو منشأ الجشع ؛ فالرجل من قبيلة « ياقوت » يأكل أربعين رطلا من اللحم في يوم واحد وكذلك تروى قصص كهذه - وإن تكن أقل منها بطولة - عن الإسكيمو والسكان الأصليين في استراليا (٧٥) ، وإن الاطمئنان الاقتصادي الذي هو من نتائج المدنية لمن حداثة العهد بحيث يتعذر عليه أن يزيل هذا الجشع الطبيعي في الإنسان ، الذي لا يزال يظهر في حب التملك الذي لا يشبع ، حتى لتراه يدفع الرجل الحديد أو المرأة الحديثة إذ هما في قلق من الحياة ، أن يسخرنَا الذهب أو غيره من السلع التي يمكن تحويلها إلى طعام إذا ما طرأ طارئ مفاجئ ؛ وليس الجشع للشراب كالجشع للطعام لأن معظم الجماعات الإنسانية قد احتشدت حول ينابيع الماء ؛ ومع ذلك فشراب المسكرات يوشك أن يعم الإنسان جميعاً ، وهم لا يطلبونه عن جشع بقدر ما يطلبونه ليدفئوا في أنفسهم برودة يحسونها ، أو يمحوا من ذاكرتهم همماً يشقيهم - وقد يطلبونه مجرد أن ما تحت أيديهم من الماء لا يصلح شراباً .

والحياة ليست عريقة القيد كالجشع ، ذلك لأن الجوع أسبق إلى الوجود من الملكية ؛ ولعل « الهمج » البدائين في أبسط صورهم أكثر الناس أمانة (٧٦) « فالكلمة يقولونها مقدسة » كما يقول « كولبن » Kolben عن قبيلة الهوتنتوت « وهم لا يصطنعون شيئاً مما تعرفه أوروبا من وسائل الفساد والحياة » (٧٧) ؛ لكن هذه الأمانة الساذجة زالت بتقدم وسائل المواصلات التي ربطت أجزاء الأرض بعضها ببعض ، لأن وسائل أوروبا استطاعت بعدئذ أن تعلم هذا الفن الدقيق للهوتنتوت ؛ فالحياة بصفة عامة تنشأ مع المدنية ؛ لأنه في ظل المدنية يزداد المجال الذي يتطلب دهاء السياسة اتساعاً ، إذ تزداد الأشياء التي تغرى الإنسان بالسرقة ، وتربيتنا لأبنائنا تشتمهم على المهارة في ذلك ؛ فإذا ما تقدمت الملكية بين البدائين جاءهم في إثرها الكذب والسرقة (٧٨) .

وأما جرائم الافتئات والاعتداء فهي قديمة قدم الجشع ؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر ، لم ينبج من ذلك جيل واحد من الأجيال وغشيتى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام ؛ كان الإنسان البدائي قاسياً إذ كان حتماً عليه أن يكون كذلك ؛ فقد علمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً ، وأن يكون له قلب يستسيغ « القتلى الطبيعي » وأسود الصحائف التي تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية ، هي تلك التي تروى لك عن التعذيب الذي يسود الحياة البدائية ، وعن الفرع الذي ينتشى به كثير من البدائيين رجالاً ونساء - فيما يظهر - إذا ما أنزلوا بأحد الما (٧٩) ، وكثير من هذه القسوة كان من لوازم الحرب ، ففي حدود القبيلة الواحدة ، تجد أساليب التعامل أقل وحشية ، فيعامل بعضهم بعضاً - بل يعاملون عبيدهم - برقة لا تقل في شيء عما تعهده المدنية من ذلك (٨٠) لكن لما كان الناس مضطرين اضطراراً أن يقتلوا إبان القتال ، فقد علمهم هذا أن يقتلوا كذلك أيام السلم ؛ وكم من البدائيين لا يرون وسيلة لفض النزاع إلا إن مات أحد المتنازعين ؛ وكثير من القبائل لا يرتاع أبناؤها إذا اغتال إنسان إنساناً - حتى إن كان القتل من أبناء العشيرة نفسها - بمثل الجزع الذي كنا نحن المحدثين نقابله به ؛ فأهل « فويجي » Fuegians لا يعاقبون القاتل بأكثر من نفيه حتى ينسى زملاؤه جريمته ؛ وقبائل الكفنر تعدُّ القاتل نجساً ، ويطالبونه بتسويد وجهه بالفحم ، ولكنه بعدئذ إن غسل جسده ومضمض فمه وصبغ جلده بلون بني قبيلوه في الجماعة من جديد ، وأما همج « فوتونا » Futuna فهم - مثلنا - يعدون القاتل بطلا (٨١) ؛ وفي بعض القبائل ترفض المرأة أن تزوج من رجل لم يقتل أحداً في قتال ، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده ؛ ومن هنا نشأت عادة اصطبياد الرؤوس التي لا تزال باقية في الفلبين حتى اليوم ؛ وعند قبيلة « دياك » Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشرى بأكثر عدد من الرؤوس ،

أن يختار من يشاء من بنات القرية ، والبنات يشتهينه زوجا لأنهن يدركن أنهن قد يصبحن - ببقاء مثل هذا الزوج - أمهات لرجال شجعان أقوياء (٨٢) (\*)

حيث يغلو الطعام ترخص الحياة ، فأبناء الإسكيمو لامندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء ولا يصلحون لشيء ، فالامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب النبوة (٨٣) ، وحياة الرجل البدائي رخيصة على نفسه لأنه يقتل نفسه في اندفاع لا ينافسه فيه إلا اليابانيون ؛ وإذا ما أسىء إلى شخص فانتحر أو أنزل بنفسه الأذى ، فالمسيء لا بد أن يجرى مجراه في ذلك وإلا عُدَّ منبوذاً من المجتمع (٨٤) ، وما أقدم الانتحار تخلصاً من الدنّس والعار ؛ وكل شيء قد يكفي سبباً للانتحار ، فقد انتحر بعض الهنديات من شمالي أمريكا لأن أزواجهن قد استباحوا لأنفسهم لومهن ، وانتحر شاب من جزيرة « تروبرياندا » لأن زوجته دَخَّنت كل ما كان لديه من تبغ (٨٥) .

وأخذت المدنية على نفسها فيما أخذت أن تحول الجشع عند الإنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والانتحار إلى فلسفة ؛ وما كان أعظمه من تقدم للإنسان حين رضى القوي أن يأكل الضعيف بوساطة القانون ؛ وإن الجماعة لتفنى إذا ما سمحت لأبنائها أن يقف بعضهم من بعض نفس الموقف الذى يشجعهم أن يقفوه جماعة إزاء غيرها من الجماعات ، فالتعاون الداخلى هو أول قانون للتنافس الخارجى ، وتنازع البقاء لا ينتهى بتعاون الأفراد بعضهم مع بعض ، إنما هو ينتقل إلى الجماعة بعد أن كان للفرد ، ولو تساوت الظروف فى جماعتين إلا فى أن إحداهما يستطيع أعضاؤها من أسر وأفراد أن يتحد بعضهم مع بعض ، فهى التى تستطيع أن تسبق الأخرى فى ميدان

(١) تكون هذه الفكرة نصف موضوع المسرحية التى ألفها سنج Syngé وعنوانها : فن

التنافس سبباً يتناسب مقدراته . مع مقدار ما بداخلها من تعاون ؛ ومن هنا كان لكل جماعة تشريع أخلاقي تلقنه لأفرادها ، وتبنى لهم في أفئدتهم ميولا اجتماعية تقلل من الحرب الطبيعية التي هي من شأن الأحياء ، وإنما تفعل الجماعة ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم حلفاؤها وأركانها المستورة ؛ وهي تؤيد طائفة من الحصول أو العادات في الفرد من شأنها أن تعود بالنفع على الجماعة ، ولذا تسميها فضائل ؛ كما تنفر النفوس من أضرارها بأن تسميها رذائل ؛ وهذه الطريقة ينخرط الفرد - في ظاهره إلى حد ما - في سلك الجماعة ، والحيوان فيه يصبح مواطناً .

لم يكن - أو كاد ألا يكون - توليد العواطف الاجتماعية في نفس « الهمجي » بأصعب من إثارة هذه العواطف اليوم في قلب الإنسان الحديث ، فلئن كان تنازع الحياة قد شجع على قيام الشيوعية ، فقد عزز تنازع الملك الشعور بالفردية ؛ وربما كان الإنسان البدائي أسرع من الإنسان المعاصر استعداداً للتعاون مع زملائه فقد كان أيسر عليه من الإنسان المعاصر أن يتأسك اجتماعياً مع زملائه لأن الأخطار والمصالح التي كانت تربط بالجماعة كانت أقوى منها الآن ، كما كانت أملاكه أقل من أن تجعله يتفرد بمصالح من دون زملائه (٨٦) ؛ لقد كان الإنسان البدائي عنيفاً جشعاً ، لكنه كان كذلك رحباً كريماً ، مستعداً لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء ، ولتقديم الهدايا لأضيافه (٨٧) فكل قارىء يعرف كرم البدائيين كيف كان يدفعهم في قبائل كثيرة إلى حد تقديم زوجة المضيف أو ابنته إلى نزيل بيته (٨٨) ورفض مثل هذه التحية أثناء الضيافة يعتبر عندهم إيذاءً شديداً لشعورهم : اشعور المضيف وشعور المرأة في آن معاً ، وإن ذلك لمن المشكلات التي يصادفها المبشرون ؛ والمعاملة التي يُعامل بها المضيف إبان إقامته تتوقف على الطريقة التي عالج بها أمثال هذه التبعات في أول قدومه (٨٩) ؛ ويظهر أن الإنسان البدائي قد كان يشعر نحو امرأته شعور الغيرة على ملكه لاشعور الغيرة الجنسية ، فلا يسعى إليه أن تكون زوجته قد «عرفت» رجالاً غيره قبل زواجها منه ، ولا يؤذيه أنها

الآن تضاجع ضيفه ، لكنه يثور بالغضب - باعتباره مالكا لا باعتباره عاشقا -  
إذا ما رآها-تضاجع رجلا بغير استئذانه ؛ وبعض الأزواج في أفريقيا  
يعيرون زوجاتهم إلى الغرباء لتسهيل أمورهم عند هؤلاء (٩٠)

إن قواعد المجاملة كانت من التعمد لدى معظم الشعوب الساذجة بمثل  
ماهى عليه لدى الأمم الراقية (٩١) فكل جماعة لها طرائقها الرسمية في الاستقبال  
والتوديع ، فإذا ما التقى شخصان فقد يتحاكان بالأنوف أو يتشمم أحدهما  
الآخر ، أو يضرب كل منهما زميله ضربا رقيقا (٩٢) ولكن هؤلاء الناس -  
كما أسلفنا - يستحيل أن يقبل أحد منهم أحدا ؛ وبعض القبائل الغليظة  
كانت أحسن أدبا من متوسط الإنسان الحديث ، فصيادو الرءوس  
البشرية من قبيلة « دياك » يقال عنهم إنهم « وديعون مسالمون » في حياتهم  
المنزلية ؛ وهنود أمريكا الوسطى يعتبرون حديث الرجل الأبيض بصوت  
عال وسلوكه الغليظ من علامات سوء تربيته وثقافته البدائية (٩٣) .

إن كل الجماعات البشرية تقريبا تكاد تتفق في عقيدة كل منها بأن سائر  
الجماعات أخط منها ؛ فالهنود الأمريكيون يعدون أنفسهم شعب الله المختار ،  
خلقه « الروح الأعظم » خاصة ليكون مثالا يرتفع إليه البشر ، وتهيأة من  
القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لا ناس سواهم » وأخرى  
تطلق على نفسها « الناس بين الناس » وقال « الكاريبيون » Caribs « نحن  
وحدنا الناس » ، وكان الاسكيمو يعتقدون أن الأوربيين إنما ارتحلوا إلى  
جرينلندة لينتقوا عنهم طرائق العيش الصحيحة والفضائل (٩٤) ونتيجة ذلك  
أن الإنسان البدائي لم يكن يدور في خلده أن يعامل القبائل الأخرى ملتزما  
نفس القيود الخلقية التي يلتزمها في معاملته لبني قبيلته ، فهو صراحة يرى  
أن وظيفة الأخلاق هي تقوية جماعته وشد أزرها تجاه سائر الجماعات ،  
فالأوامر الخلقية والمحرمات لا تنطبق إلا على أهل قبيلته ، أما الآخرون  
فما لم يكونوا ضيوفه ، فباح له أن يذهب في معاداتهم إلى الحد المستطاع (٩٥)

ليس التقدم الخلقى في التاريخ متمثلاً في تحسّن التشريع الخلقى بمقدار ما هو ممثل في توسيع الدائرة التي يُطبَّقُ فيها ، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائي ، ولو أن التشريعيين الخلقيين قد يختلفان فيما بينهما اختلافاً بينا من حيث المضمون والتنفيذ والأداء ، لكن الأخلاق الحديثه في الأيام العادية تنسج نطاقاً بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذي قبل - ولو أن هذا التوسع قد أخذ يقل تدريجاً(\*) ذلك أنه لما جعلت القبائل تحتشد في وحدات أكبر تسمى دُولاً ، فاضت قواعد الأخلاق عن حدود القبيلة ؛ ثم لما اتصلت الدول بوسائل المواصلات أو بالخطر المشترك ، تسالت الأخلاق من دولة إلى دولة خلال الحدود ، وطفق فريق من الناس يطبق قواعد الخلقية على الأوروبيين جميعاً ، ثم على الجنس الأبيض كله ، ثم أخيراً على البشر أجمعين ، وربما لم يخل عصر من العصور من أصحاب المثل العليا الذين تمنوا أن يحبوا الناس جميعاً حبهم بلخيرانهم ، وربما كانت أصواتهم دائماً صيحات في واد بلقع من قوميات وحروب ؛ لكن عدد هؤلاء الناس أو حتى نسبتهم العددية إلى غيرهم ، قد زادت اليوم على الأرجح ، ولئن خلت السياسة من الأخلاق ، فهناك أخلاق في التجارة الدولية لسبب بسيط هو أن هذه التجارة يستحيل قيامها بغير شيء من القيود والقانون والثقة ، فإن بدأت التجارة في القرصنة ، فقد صعدت إلى قمة الأخلاق .

ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة ، إذ الفرد لم تهيئه طبيعته بالمول التي تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع ، أو نحو طاعة القوانين المخرجة للصدور إذا لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة ؛

---

(\*) ومع ذلك فالمدى الذي يطبق في حدوده التشريع الخلقى قد أخذ يضيق منذ العصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات .

فلكى تقيم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور ، ولكى تقوى فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية ، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تخترعها ؛ ولقد عبر الجغرافى القديم « سترابو » عن أكثر الآراء تقدماً فى هذا الموضوع منذ تسعة عشر قرناً فقال :

إنك فى معاملتك لحشد من النساء ، على أقل تقدير ، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق ، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم ، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تقنعهم إقناعاً بضرورة الوفاق والورع والإيمان كلا ، بل لا بد لهم من الخوف الدينى أيضاً . ولا يمكن إثارة هذا الخوف فى نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ؛ فالصواعق والدروع والصولجانات والمشاعل ورماح الآلهة ، كل هذه من الأساطير ، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله إلى آخره ؛ لكن مؤسسى الدول حرصوا على هذه الأشياء باعتبارها عفاريت يُفزعون بها السذج من الناس ؛ ولما كانت هذه طبيعة الأساطير (الميثولوجيا) ثم لما احتلت الأساطير مكانتها فى إطار الحياة المدنية والاجتماعية كما احتلت مكانتها كذلك فى تاريخ الوقائع الملموسة ، فقد تمسك القدماء بنظمهم فى تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج ، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهذبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ ؛ أما اليوم ، وبعد أن مرَّ هذا الزمن الطويل ، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة فى مقدمة ما يربى به الناشئ ؛ مع أن الفلسفة لا تصلح إلا للقليل ، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة « (٩٦) .

لكن فسرعان ما تسبغ العقيدة الدينية على الأخلاق لونها من التقديس ، لأن ما هو فوق الطبيعة يضيف أهمية يستحيل أن تكنسها من تلقاء نفسها الأشياء التى نعرفها بالتجربة الحسية والتى نفهمها بردِّها إلى أصولها ، فالتخيل أيسر وسيلة من العلم فى حكم الناس ؛ ولكن هل كانت هذه الفائدة الخلقية هى أصل العقيدة الدينية وأساسها ؟

obeyikenda.com

## الفصل الرابع

الدين

### الملاحدة البدائيون

إذا عرفنا الدين بأنه عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة . فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب - فيما يبدو - ليس لهم ديانة على الإطلاق فيعض قبائل الأقرام في أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ؛ ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة ؛ وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال ، فإذا ما فرغوا من دفنهم لم يبند عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً ، بل أعوزتهم حتى الخرافة ، ذلك أو أخذنا بأقوال الرحالة فلم نظن بأقوالهم الإسراف الذي يعز على التصديق (١٩٦) ؛ وأما أقرام « الكامرون » فلم يعترفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط إرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة في هذه السبيل عث لا يجدي ؛ وقبيلة « فيندا » في سيلان اعترفت باحتمال وجود الآلهة ونخلود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحد بحيث يؤدنون الصلاة أو يقدمون القرابين ؛ وسأل أحداهم سائل عن الله فأجاب في حيرة فيلسوف حديث : « أياكون على صخرة أم على تل من تلال الغمل الأبيض أم على شجرة ؟ إني لم أر قط إلهاً ! » (١٩٦ب) ؛ وهنود أمريكا الشمالية تصوروا إلهاً لكنهم لم يعبدوه ، وظنوا - كما ظن أبيقور - أنه أبعد من أن يعنى بأمرهم (١٩٦ج) ، وقال هندي من قبيلة « أيببون » ما عساه أن يحير عالماً من علماء الميتافيزيقا ، إذ قال في لهجة كوتفوشية « إن آباءنا وأجدادنا كانت تعنيهم هذه الأرض وحدها ، لا يرجون شيئاً سوى أن يُنبت لهم السهل كلاً ويفجر لهم ماء لتطعمهم بجيادهم

وتشرب ؛ لأنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما يجري في السماء ، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها » ، ولما كان الإسكيمو يُسألون من ذا صنع السماوات والأرض ، كانوا يجيبون دائماً بقولهم « لسنا ندرى » (٩٦د) ، وسئل رجل من « الزولو » : « إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب ، وإذا رأيت الشجر ينمو ، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها ؟ » أجاب في بساطة بقوله « كلا ، فنحن نراها ، لكننا لانستطيع أن نعلم أنى جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء نفسها » (٩٦هـ)

على أن هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً اعتقاداً سليماً ؛ وهذه ، في رأى الفيلسوف ، حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية ، فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو الباطل ، لأنه معنىٌ قبل ذلك بالمشكلة في ذاتها ، أعنى مشكلة العقيدة الدينية من حيث قِدَم ظهورها ودوام وجودها ، فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيء من صدر الإنسان ؟ .

## ١ - مصادر الدين

الخوف - الدهشة - الأحلام - النفس - الروحانية

الخوف - كما قال لوكريشس - أول أمهات الآلهة ، وخصوصاً الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءت بها المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية (٩٧) وعزاه إلى فعل الكائنات الحارقة للطبيعة ، ففي أساطير سكان بريطانيا الحديدية الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ أخطأته الآلهة ، فقد قال الإله الحير

« كامبينانا » إلى أخيه الأحمق « كورثوفا » : « اهبط إلى الناس وقل لهم يسلمخوا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ، ثم أنبئ الشعابن أن موتها منذ اليوم أمر محتوم » فخلط « كورثوفا » بين شطري الرسالة بحيث بأنغ سر الخلود للشعابن ، وقضاء الموت للإنسان (٩٨) ؛ وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يخلد لو استطاع أن يبدل بجلده جليداً آخر (٩٩) .

وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل في معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسيره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذي تحدثه أجرام السماء في الأرض والإنسان ؛ لقد بهت الإنسان البدائي لهذه الأعاجيب التي يراها في نومه ، وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة ؛ لقد دفن موتاه بيديه ليحول دون عودتهم ؟ لقد دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر الحاجات حتى لا يعود الميت من جديد فيصب عليه لعنته ، بل كان أحياناً يترك للميت الدار التي جاءه فيها الموت ، وينتقل هو إلى دار أخرى ، وفي بعض البلدان كان الإنسان البدائي يُخرج الجثة من الدار خلال ثقب في الحائط ، لا من بابها ، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة ، لكي تنسى الروح أين المدخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبداً (١٠٠) .

مثل هذه الأحداث التي كانت تصادف الإنسان البدائي في حياته ، أقنعته بأن كل كائن حي له نفْس أو حياة دفينة في جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت ؛ جاء في كتاب من كتب « يوپانشاد » في الهند القديمة : « لا يوقظ أحدٌ نائماً إيقاظاً مفاجئاً عنيفاً ؛ لأنه من أصعب الأمور علاجاً أن تفضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها » (١٠١) وليست الروح

بقاصرة على الإنسان وحده ، بل إن لكل شيء روحاً ، والعالم الخارجي ليس مواتاً ولا مخلواً من الإحساس ، لكنه كائن حتى دافق الحياة (١٠٢) مولود لم يكن الأمر كذلك - هكذا ظن الفلاسفة القدامى - لكان العالم مليئاً بالأحداث التي يستحيل تعليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذي يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر ، وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخصة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ؛ وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ؛ وهذه الروحانية في النظر إلى الأشياء هي ما في الدين من شعر ، وما في الشعر من دين ؛ وقد نشاهد في أبسط صورها ، في عيني الكلب الدهشتين إذ يرقب بهما وزقة حملتها الريح أمامه ، فربما ظن إزاءها أن لها روحاً تحركها من باطنها ، وهذا الشعور نفسه هو الذي نصادفه في أعلى درجاته عند الشاعر فيما ينظم من قصيد ؛ ففي رأى الإنسان البدائي - و رأى الشعراء في كل العصور - أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء ، كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئية للنفوس الباطنية الخفية ؛ وكذلك الحال مع اليونان الأقدمين إذ جعلوا السماء هي الإله « أورانوس » ، والقمر هو الإله « سيلين » ، والأرض هي الإلهة « جى » ، والبحر هو الإله « بوزيدن » ، وأما الإله « بان » ففي كل أرجاء الغابات في وقت واحد ؛ والغابات في رأى الجرمان الأقدمين كانت في أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمرآة والأقزام وعرائس الجن وإلك لتلمس هذه الكائنات الجنية مبثوثة في موسيقى « فاجنر » وفي مسرحيات « إيسين » الشعرية ؛ والفلاح الساذج في إيرلندا لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ، ويستحيل أن يُعترف بشاعر أو كاتب مسرحي على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات في أدبه ، وإن في هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالاً ، فمن الخير الذي يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملة الأحياء ؛

والنفس الحساسة - كما يقول أرفف الكتاب المعاصرين حساسية -  
ترعى كأنما :

« الطبيعة قد أخذت تتبدى في هيئة مجموعات كبرى من كائنات حية  
مستقل بعضها عن بعض ؛ بعضها مرئيٌ وبعضها خفيٌ ، لكنها جميعاً من طبيعة  
العقل ، ثم هي جميعاً من طبيعة المادة ، وهي كذلك جميعاً تمزج في أنفسها  
بين العقل والمادة فتكوّن بذلك سر الوجود العميق . . . إن العالم ملء بالآلهة !  
فن كل كوكب ومن كل صخرة ينبثق وجودٌ يثيرنا بنوع من الإحساس  
الذي ندرك به كثرة ما هنالك من قوَى شبيهة بقوى الآلهة ، فمنها القوى  
ومنها الضعيف ، ومنها الجليل ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والأرض  
لمحقق غاياتها التي كتمتها في أجوافها سرّاً » (١٠٣)

## ٢ - المعبودات الدينية

الشمس - النجوم - الأرض - الجنس - الحيوان - الطوطمية -  
الانتقال إلى مرحلة الآلهة البشرية - عبادة الأشباح - عبادة الأسلاف

لما كان لكل شيء روح ، أو إله خفيٌ ، إذن فالمعبودات الدينية لا تقع  
تحت الحصر ، وهي تقع في ستة أقسام : ما هو سماوي ، وما هو أرضي ،  
وما هو جنسيٌ ، وما هو حيوانيٌ ، وما هو بشريٌ ، وما هو إلهيٌ ؛ وبالطبع  
لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء في هذا العالم الفسيح كان أول معبود  
للإنسان ؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى ؛ فكما أننا اليوم نتحدث  
في أغانينا الشعبية عن « الرجل الذي يسكن القمر » كذلك صورت الأساطير  
الأولى القمر رجلاً شجاعاً أغوى النساء وسبّبَ لهن الحيض مرةً كلما ظهر ؛  
ولقد كان القمر إلهاً محبباً للنساء ، عبّدهنَّ لأنه جامهن بين الآلهة ؛ وكذلك  
اتَّخذ القمر الشاحبُ مقياساً للزمن ، فهو في ظنهم يهيم على الجو ،  
ويُنزل من السماء المطر والثلج ، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء  
لينزل لها المطر (١٠٤) :

ولسنا ندرى متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دواة السماء ، عند الديانة البدائية ؛ وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محدداً لفصول البذر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خيرات ؛ عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين إلهة تخلصها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كل شيء حتى (١٠٥) ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها ؛ ألم يَقتضِ اليونان على أناكسجوراس بالنفي لأنه استباح لنفسه أن يذهب بالظن مذهباً مؤداه أن الشمس ليست لها ، بل هي كرة من النار تقرب في حجمها من « پلپونيز » ؟ وكذلك استبقت العصور الوسطى بقيّة من عبادة الشمس في الهالات التي كان الناس يصورونها حول رعوس القديسين (١٠٦) ، وإمبراطور اليابان في أيامنا هذه معدود عند معظم شعبه بأنه تجسيد لإله الشمس (١٠٧) ، الحق أنك لا تكاد تجد خرافة من خرافات العصر القديم إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم ؛ إن المدنية صنيعة أقلية من الناس أقاموا بناءها في أناة واستمدوا جوهرها من حياة الترف ؛ أما سواد الناس وعمارهم فلا يكاد يتغير منهم شيء كلما مرت بهم ألف عام .

وكل نجم شأنه شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهاً وهو بذاته إله ، ويتحرك بأمر روح كامن في جوفه ؛ وهذه الأرواح في ظل المسيحية أصبحت ملائكة تهدي سواء السبيل ، أو إن شئت فقل أصبحت لأفلاك السماء قادة تسلك بها في مسالكها ، حتى « كپار » لم يبلغ من النظرة العلمية مبلغاً يحمله على إنكارها ؛ والسماء نفسها كانت إلهاً عظيماً ، تقام لها العبادة في تبتل لأنها هي التي تُنزل الغيث أو تحبسه ؛ وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة « الله » لتعني « السماء » ولفظ الله عند « اللوبارى » و « الدنكا » معناها المطر ، كذلك كانت السماء

عند المنغوليين هي الإله الأعظم ، وكذلك الحال في الصين ، وفي الهند  
الفيدية أيضاً ، معنى كلمة الله هو « السماء الوالدة » ، والله عند اليونان هو  
زيوس أو السماء « مرعمة السحاب » وهو « أهورا » عند الفرس ، أى  
السماء الزرقاء (١٠٨) .

ولا نزال في أيامنا هذه نضرع إلى « السماء » أن تقينا الشرور ، ومعظم  
الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الحصب الذي نتج عن تزاوج  
الأرض والسماء .

لأن الأرض هي الأخرى كانت إلهاً ، وكل مظهر رئيسي من مظاهرها  
كان يقوم على أمره إله ؛ فللشجر أرواح كما لبني الإنسان سواء بسواء ،  
وقطعُ الشجرة معناه قتلٌ صريح ؛ وكان الهنود في أمريكا الشمالية أحياناً  
يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التي كانت أرواحها  
تسمى « الحُمْرَ » من الأذى ؛ وفي جزر « مولقًا » كانوا يعتبرون الأشجار  
أيام الإزهار حواملَ أجنّة ، فلا يجيزون إلى جوارها ارتفاع الصوت  
أو إشعال النار أو غير ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدوا على  
الأشجار الحبلبات سكونها ، وإلا بلحاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها كما  
تجهض المرأة إن ألم بها الفزع ؛ وكذلك في « أبويننا » Abouyna لا يؤذن  
بالأصوات العالية على مقربة من الأرز إذا ما ازهرت سنابله خشية أن  
يصيبه الإجهاض فينقلب أعواداً من القش العقيم (١٠٩) و « الفال » القدماء عبدوا  
أشجار غابات معينة كانت لديهم مقدسة ، وكذلك القساوسة « الدرديون »  
Druid في إنجلترا مجدوا ديتقَ أشجار البلوط ، الذي لا يزال يوحى إلى نابشعيرة من  
الشعائر المحيية إلى نفوسنا ؛ وأقدم عقيدة دينية في آسيا - مما تستطيع أن تتعقبه  
إلى أصوله التاريخية - هي تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال (١٠١)  
فكثير من الجبال كان أما كن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مفراً ترسل منه ما شات من  
صواعق ؛ وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدرأ فهزوا أكتافهم  
ويعلل أهل « فيجي » الزلازل بأن إله الأرض يتقلب في نومه ؛ وإذا ما زلزلت

الأرض عند قبيلة « ساموا » أخذوا يقرضون الأرض بأسنانهم ويبتهلون إلى الإله « مافوي » Mafuie أنه يسكن حشية أن تتمزق الأرض كلها إرباً إرباً (١١١) ؛ والأرض عند الناس في شتى النواحي المعمورة تقريباً هي « الأم الكبرى » فاللغة الإنجليزية التي كثيراً ما تكون بمثابة الرواسب التي تجمعت فيها العقائد البدائية أو اللاشعورية ، تشير حتى اليوم بصلة القربى بين المادة والأمومة ( مادة معناها Matter والأم معناها Mother ) (١١٢) وليس « إشتَر » « وسبيل » و « ديميتير » و « سيريز » و « أفروديت » و « فينيس » و « فرييا » إلا صوراً متأخرة نسبياً لإلهات الأرض الأوليات اللاتي خلعن من خصوبتهن خصوبة على الأرض فأخرجت من جوفها الخيرات ؛ وما رواه الناس عن ولادة هؤلاء الإلهات وزواجهن وعن موتهن وعودتهن منتصرات إلى الحياة ، إن هو إلا رموز أو تعليل لظهور النبات ثم نجفاه ، والتجديد والملاحظ الذي يطرأ على حياة النبات حيناً بعد حين ؛ وهذه الإلهات تدل بأنوثتهن على أن الإنسان البدائي قد ربط بين الزراعة والمرأة ؛ فلما أصبحت الزراعة هي الصورة السائدة في الحياة الإنسانية ، كانت إلهات النبات هي سيدة الإلهات جميعاً ؛ ومعظم الأرباب في العصر القديم كان من النساء ، ثم حل محلهن الآلهة الذكور ، حين ظهرت الأسرة الأبوية فوق الأرض ظافرة (١١٣)

وكما يرى العقل البدائي فيما يقول من شعر عميق سرّاً إلهياً في نمو الشجرة ، كذلك يرى يداً إلهية في حمل الجنين أو ولادته ؛ إن « الهمجى » لا يعرف شيئاً عن البويضة والجرثومة المنوية ، لكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينيه ، التي تشترك معاً في هذه العملية فيوثلها ، فهي كذلك تكمن في جوفها الأرواح ولا بد من عبادتها ، أليست هذه القوى الخلاقية العجيبة في سرّها ، أعجب الكائنات جميعاً ؟ ففيها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر في تربة الأرض نفسها ؛ وإذن فلا بد أن تكون أقرب ما تجسّد فيه الآلهة قوتها ؛ وتوشك الشعوب البدائية جميعاً أن تعبدَ الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من

الشعائر ؛ ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنيّة ، هو الذي عبّر عن هذه العبادة تعبيراً كاملاً ؛ وسرى هذه العبادة في مصر والهند وبابل وآشور واليونان والرومان ؛ كان الناس يجلون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسي من آلهتهم البدائية إجلالاً عظيماً (١١٤) لأنهم يرون في ذلك شيئاً من الغناحية بل لأنهم يرتبطون ارتباطاً وجدانياً بالخصوبة في المرأة وفي الأرض ؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والثعبان لأن لها - فيما يظهر - القوة الإلهية في الإنسال ، أو قلّ إنهما يرمزان لتلك القوة فلا شك أن الثعبان في قصة عدن رمز جنسيّ يمثّل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشركه ، ويوحى بأن اليقظة الجنسية هي بداية الخير والشر ، وربما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سداجة العقل ونعيم الفردوس (\*)

وتكاد لا تجد حيواناً في الطبيعة كلها - من الجعّل ( الجعران ) المصري إلى الفيل عند الهندوس - لم يكن في بلدما موضع عبادة باعتباره إلهاً ؛ فهنود « أوجيبوا Ojibwa » أطلقوا اسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذي يعبدونه ، وعلى العشيرة التي تعبده ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ؛ ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسماً على مذهب « الطوطمة » الذي يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشيء معين - وعادة يكون الشيء المعبود حيواناً أو نباتاً - تتخذه جماعة ما موضع عبادتها ؛ ولقد وجدنا أنواعاً مختلفة من الطوطم في أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة ، من قبائل الهنود في شمال أمريكا ، إلى أهل أفريقيا وقبيلة « دراويد » Daravians في الهند ، وقبائل - استراليا (١١٥) ؛ ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً . على توحيد القبيلة التي ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معاً برباطه ، أو هبطوا جميعاً من سلالته ؛ فقبيلة « إراكو » تعتقد - على نحو شبيه بما يذهب إليه دارون - أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الدينة

(\*) انظر الفصل الثاني عشر ، الفقرة السادسة ، من الجزء الخاص بالشرق الأدنى .

والذئاب والغزلان ، وأصبح الطوطم - باعتباره شعاراً أو رمزاً - علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قُربى ، وتميزهم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور في صور عكسائية فكان منه التماثم والشارات ، كهذا الذى تتخذه الأمم . من شعارات لها كالأسد أو النسر ، أو الأيل الذى تتخذه الجمعيات التى تعمل على الإخاء بين الناس ، أو هذه الحيوانات الحرساء التى تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم ، لتمثيل رسوخ القبلة أو صخب البغال ؛ وكانت الحمامة والسמكة والحمل ، فى رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم فى تمجيد الطواطم ؛ بل إن الخنزير الوضيع كان يوماً طوطماً لليهود السابقين للتاريخ (١١٦) ؛ وفى معظم الحالات كان الطوطم محرماً لا يجوز لمسه ؛ ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلًا تعبدياً (\*) ، و قبيلة « غالا » فى الحبشة تأكل السمكة التى تعبدها فى احتفال دينى رصين ، ويقول أبناؤها : « إننا نشعر بالروح تتحرك فىنا إذ نحن نأكلها » ؛ وما كان أشد دهشة المبشرين الأطهار ، إذ هم يبشرون بالإنجيل لقبيلة « غالا » أن وجدوا بين هؤلاء السذج شعيرة شديدة الشبه بالقُدّاس عند المسيحيين (١١٦)

ويجوز أن قد كان الخوف أساس الطوطمة ، كما هو أساس كثير من العبادات ، وذلك بأن يكون الإنسان قد عبّد الحيوان لقوته ، فلم يتربّدًا من استرضائه ، فلما أن طهر الصيد الغابة من وحشها ، ومهد الطريق للطمانينة التى تتوقر فى الحياة الزراعية ، قلّت عبادة الحيوان ولو أنها لم تنزل تمام الزوال ؛ وربما استمدت

---

(\*) يعتقد فرويد بما له من خصوبة فى الخيال يتميز بها ، أن الطوطم هو صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذى يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته ، فيثورون عليه ويأكلونه (١١٧) ويرى دركهايم أن الطوطم رمز للعشيرة يهابه الفرد ويمقتته (ومن هنا كان « مقدساً » و « نجسًا » فى آن معاً) لشدة سلطانه عليه سلطاناً لا يغلب ولا استبداده استبداداً يخرج الصدر ، وأن الشعور الدينى فى أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولى الأمر فى جماعته الذين بيدهم السلطة (١١٨)

الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التي جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلاً ؛ والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح في القصص المشهورة التي تروى لنا تحول الصورة الإلهية ، والتي تراها في « أوغد » الشاعر ، وفي كل شاعر من قبيلة من تراهم في لغات الأرض جميعاً ، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدها ظلت صفات الحيوان للاحقة بالآلهة لا ترحها ، كما تظل رائحة الاصطبل للاحقة بمكانه حتى بعد تحويله قصراً ريفياً منيفاً ؛ حتى في « هومر » الذي كان قد بلغ من الرقي مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة « جلوكوبس أثيني » لها عينا بومة ، و « هيري بويس » لها عينا بقرة ؛ والآلهة أو الغيلان في مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعرف بالحقيقة عينا ، وهي أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية (١٢٠) .

ومع ذلك فعظم الآلهة البشرية قد كانوا - فيما يظهر - عند البداية رجلاً من الموتى ضخموا بفعل الخيال ؛ فظهور الموتى في الأحلام كان وحده كافياً للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف ، فهي على الأقل زميلته ؛ وخصوصاً من كانوا أقوياء إبان حياتهم ، فآلقوا الخوف في نفوس الناس ؛ هؤلاء يرجح جداً أن يُعبَدُوا بعد موتهم (١٢١) ، ولذلك تجد الكلمة التي معناها « إله » عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها في الحقيقة « رجل ميت » ؛ وحتى اليوم ، ترى كلمة « Spirit » في الإنجليزية وكلمة « Geist » في الألمانية معناهما إما روح وإما شبح ؛ وكان اليونان يتركون بموتهم غلى نحو ما يترك المسيحيون بالقدسين (١٢٢) ؛ ولقد بلغت العقيدة في استمرار حياة الموتى - وهي عقيدة تولدت في بدايتها من الأحلام - مبلغاً عظيماً حتى جعل البدائيون أحياناً يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفي الدقيق ؛ ففي قبيلة من القبائل ، إذا ما أراد الرئيس أن يبعث بخطاب لميت ، أسمع له بعد ثم قطع رأس العبد ليؤدي الرسالة ، فإذا نسي

الرئيس شيئاً كان يريد ذكره في الخطاب ، أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون « حاشية » للخطاب الأول (١٢٣)

ثم تدرجت عبادة الأشباح حتى أصبحت عبادة للأسلاف ؛ فقد بات الناس يخافون موتهم جميعاً ويعملون على استرضائهم خشية أن يُنزلوا لعنائهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ؛ وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهياة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، ولتتمكين من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعاً سريعاً في كل أرجاء المعمورة فازدهرت في مصر واليونان وروما ، ولا تزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة في اليابان والصين الآن ؛ وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم إله (١٢٤) (\*) ؛ ولقد عمل هذا الاتجاه على ربط أواصر الأسرة ربطاً وثيقاً ؛ على الرغم من كراهة الخلف لهذا النظام ؛ وكذلك كان لكثير من المجتمعات البدائية بمثابة إطار خفي<sup>١</sup> ينتظم الأفراد في مجموعة متماسكة ؛ وكما أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً ، فكذلك الخوف تطور حتى أصبح حبساً ؛ فشعائر عبادة الناس لأسلافهم ، التي يرجح أنها كانت وليدة الخوف في أول الأمر ، قد أثارت في القلوب بعدئذ شعور الرهبة ، ثم تطورت أخيراً إلى ورع وتقوى ؛ وكذلك ترى الاتجاه في الآلهة أن يبدؤوا في صورة الغيلان المفترسة ثم ينتهون في صورة الآباء الذين يحبون أبناءهم ؛ وهكذا يتحول الصنم المعبود على مرّ الزمن إلى مثل أعلى منشود ، كلما عملت زيادة الاطمئنان والأمن والشعور الخلقى لدى العابدين على الحدّ من وحشية آلهتهم كما تصورها أولاً ، وتحوير ملامحهم تحويراً يلائم الطور الجديد ؛ إن البطء في سير المدنيّة ليتمثل في تأخر المرحلة التي أحسّ فيها الناس بحب آلهتهم .

( \* ) بقايا عبادة الأسلاف لا تزال قائمة بيننا ممثلة في عنايتنا بالقبور وزيارتها ، وفي قداسنا وصلاتنا من أجل الميت .

إن فكرة إله بشرى لم تظهر في مراحل التطور الطويلة إلا أخيراً ؛ وقد برزت في صورة واضحة بعد اجتيازها لمراحل كثيرة أخرجتها من تصور الإنسان لمحيط خضم أو لحشد كبير من الأرواح والأشباح تحيط بكل شيء وتعمر كل شيء ؛ ثم انتقل الإنسان من خوفه وعبادته لأرواح غامضة المعالم مهمة الحدود ، إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية ، ثم إلى خشوعه للحيوان وعبادته للأسلاف ، والأرجح أن تكون فكرة الإنسان عن الله بأنه « أب » قد تفرعت عن عبادة الأسلاف ، لأن معناها في الأصل هو أن الناس قد هبوا من الآلهة بأجسامهم ، لا بأرواحهم فقط (١٢٥) ولذا لا تجد في اللاهوت البدائي حداً قاصلاً متميزاً من حيث النوع بين الآلهة والناس ؛ فعند اليونان الأقدمين - مثلاً - كان الأسلاف آلهة والآلهة أسلافاً ؛ وتلت ذلك خطوة أخرى في التطور ، حين ميّزَ الناس من بين هؤلاء الأسلاف الخليط رجال ونساء بعينهم ، كان لهم امتياز خاص دون سائر الأسلاف ، فأصبغوا عليهم لونا أوضح من الربوبية الصريحة ؛ وبهذا أصبح أعلام الملوك آلهة حتى قبل موتهم أحياناً ؛ لكننا إذا ما بلغنا من التطور هذه المرحلة فقد بلغنا المدنية التي دونها التاريخ .

### ٣ - طرائق الدين

السحر - طقوس الزراعة - أعياد الإباحة - أساطير الإله المبعوث - السحر والحرافة - السحر والعلم - الكهنة

لما تصور الإنسان البدائي عالماً من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ، فقد عمل على استرضائها واجتلابها في صفته لمعونته ؛ ومن هنا كانت إضافته إلى الروبانية التي هي جوهر الديانة البدائية ، سحراً هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ؛ فقد تصور البولينيزيون خضماً حقيقياً مليئاً بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم « مانا » وكان الساحر في رأيهم إنما يُقَطَّر لهم قطرات ضئيلة من هذا المورد الذي لا ينتهي ،

البلدان يضيفون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلاً بعملية الزواج علناً ، حتى لا يتركوا للطبيعة - على الرغم من أنها ليست سوى طين بارد جامد - عندياً بأنهم لم تفهم الواجب الذي طُلب إليها أداؤه ؛ وفي جاوة ، يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالاً جنسياً في حقول الأرز ليضمنوا خصوبة إنتاجها (١٣٠) ذلك لأن البدائيين لم يفهموا نمو النبات بلغة التروجين ، بل فهموه - بالطبع دون أن يعلموا أن للنبات ذكوراً وإناثاً - على نفس الأساس الذي كانوا يعللون به إثمار المرأة ؛ ثم أليس في استعمالنا لكلمات مثل إثمار للطبيعة وللطبيعة وللمرأة معاً ، ما يذكرنا بعقيدتهم تلك وما تنطوي عليه من شعر ؟

وتقام أعياد يختلط فيها الجنسان اختلاطاً بغير ضابط ، وهي في معظم الحالات إنما تقام في فصل البذر ، بمثابة أمرٍ بوقف القوانين الخلقية حيناً ( وهي تذكر الناس بما كان في علاقاتهم الجنسية في أيامهم الماضية من حرية نسبية ) والغاية من هذه الأعياد إخصاب زوجات من بهم عقم من الرجال من جهة ، وإيحاء للأرض في فصل الربيع بأن تخرج عن تحفظها الذي لازمته أيام الشتاء ، لتقبل ما بذروه فيها من بذور ، وتهيئ نفسها لإخراج نتاج طيب من القوت ، وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية ، وخصوصاً بين أهل كامرون في الكونغو ، والكفير ، والهوتنتوت ، والبانو وفي ذلك يقول « ه . رولى » H. Rowley وهو من رجال الدين في بانو :

« إن أعياد الخصايشبية في خصائصها بأعياد « بانخوس » ( عند اليونان ) ... فإنه يستحيل على إنسان أن يشاهدها دون أن يأخذها الخجل . . . فهم لا يكتفون في هذه الإباحة الجنسية الكاملة بضم من تنصّر حديثاً ، بل لا يكتفون بضم من طال أمد تنصّره ، لكنهم يغشون أي زائر وقف ليشاهد حفلهم بالانغماس معهم في إباحتهم ؛ عندئذ لا يحول الناس حائل " دون الانغماس في الدعارة ، وهم لا ينظرون إلى الزنا نظرة فيها أثر من معنى البشاعة ، بسبب الظروف

التي تحيط بهم حينئذ ؛ بل إنهم لا يسمحون لرجل حضر الاحتفال أن يضاجع زوجته « (١٣١) .

وتظهر أعياد كهذه في عصور المدينة التي دوتها التاريخ ، فاحتفالات « باخي » عند اليونان ، وأشباهها في روما وفي فرنسا إبان العصور الوسطى وفي إنجلترا وسائر الاحتفالات التهريجية التي نشاهدتها في عصرنا ، كل هذه من قبيل الأعياد الإباحية القديمة .

على أن شعائر الزراعة هذه تتخذ في بعض البلاد هنا وهناك صورة أقل ظرفاً مما ذكرنا - كما هي الحال عند البونيين Pawnees وعند هنود جواياكيل ؛ فرجل " يُضْحَى به في وقت البذر حتى تَخْتَصِبَ الأرض بدمائه - وفيما بعد خَفَتْ الصورة بعض الشيء ، فاكتفوا بذبح الحيوان قرباناً - ؛ حتى إذا ما حلَّ موسم الحصاد فَسَّرُوهُ بأنه بَعَثُ للرجل الذي مات ضحيةً ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ؛ ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التي تَرَوِي في ألف صورة مختلفة كيف يموت الله في سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافراً (١٣٥) ؛ وعمل الشعر على زخرفة السحر حتى حوَّله ضرباً من اللاهوت ؛ واختلطت الأساطير تُروِي عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطاً فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التي تَرَوِي عن موت الإله وعودته ولادته ؛ لا يقتصر مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض في الربيع بل تجاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين : الصيف والخريف ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ؛ ذلك لأن حلول الليل لم يكن إلا جزءاً من هذه المأساة ؛ فإنه الشمس . وت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة ؛ فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور . والظاهر أن التضحية بالإنسان - التي ذكرنا من شتى صيغها مثلاً واحداً - قد أخذ بها الإنسان في كل الشعوب تقريباً ، فتظهر ها هنا يوماً وها نالك يوماً ؛

فقد وجدنا في جزيرة كارولينا في خليج المكسيك تمثالا كبيرا معدنية  
أبوف لإله مكسيكي قديم ، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية ، لاشك  
أنها ماتت بالخرق قربانا لله (١٣٣) ، وكلنا يسمع عن « ملُخ » الذي كان  
الفينيقيون والقرطاجنيون ، وغيرهما من الشعوب السامية حينما بعد حين ،  
يقدمون له القرابين من بنى الإنسان ؛ ولقد شهد عصرنا الحاضر هذه العادة  
قائمة في روديسيا (١٣٤) وربما كان منشأ هذه العادة أكل البدائين للحوم  
البشر ، فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون ؛ ولما كانت  
العقيدة الدينية أبطأ تغيرا من سائر العقائد ، ثم لما كانت الشعائر الدينية  
أبطأ تغيرا من العقائد نفسها ، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحم الإنسان ،  
وبقى التقليد قائما بالنسبة للآلهة (١٣٥) ؛ ومع ذلك فقد تغيرت حتى هذه  
الشعائر الدينية بفضل تطور الأخلاق ، بحيث طفق الآلهة يقلدون عبادهم  
الزيادة من اصطناع الرقّة ، واستسلموا للوضع الجديد فقبلوا لحم الحيوان  
طعاما بدل لحم الإنسان ، فَضُحِّيَ بغزال بدل التضحية بافجينيا ( في أساطير  
اليونان ) قما ضُحِّيَ بكبش بدل التضحية بابن إبراهيم ؛ ومضى الزمان  
في تقدمه ، فحرمت الآلهة حتى هذا الحيوان ، لأن الكهنة آثروا أنفسهم  
بالطعام الشهى ، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة ،  
ثم يتهبون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها (١٣٦) .

ولما كان الإنسان الأول يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ،  
فقد كان من الطبيعي أن تَرِدَ على خاطره فكرة أكل الإله ؛ ففي كثير  
من الحالات كان يأكل لحم الإله البشري ويشرب دمه ، ذلك الإله  
الذي عبده وسَمَّنَه استعدادا للتضحية به ؛ لكن الطعام كثرت موارده  
وضمن الإنسان اطرّاده ، فانتهى ذلك إلى زيادة الرحمة في فؤاده ،  
ولذلك استبدل بالتضحية الإلهية رموزا على هيئتها ، واقتنع بأكلها ، ففي  
المكسيك القديمة ، كان يُصنع تمثال لله من الغلال والحبوب والخضر ،  
يُعجن بدماء صبيان يضحى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلونه على أنه بديل

دينى لأكل الله نفسه ؛ وأشباه هذه الاحتفالات الدينية وجدناها بكثرة. في القبائل البدائية ، وكانت العادة أن يطلب إلى الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ، وكان الكاهن ساعتهذ يقول بعض العبارات السحرية ليحوّل بها التمثال المأكول إلى إله حقيقى (١٣٧) .

ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهى بالعلوم ، فألوف من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ، ثم نشأ عنها صلوات وطقوس عجيبة ؛ فقبيلة « كوكى » Kukis كانت تلهب حماسة أبنائها فى القتال بزعمها لهم أن الأعداء القتلى سيكونون لهم عبيداً فى الحياة الآخرة ؛ ولكنك من ناحية أخرى ترى الرجل من قبيلة « بانتو » Bantu إذا قتل عدواً له ، حلق رأس نفسه ، وطفى نفسه بروث الماعز ، ليمنع روح الميت من العودة إليه والفتك به ؛ وتكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على فِعْل اللعنات وشر « العين الحاسدة » (١٣٨) فلم يشك الاستراليون الأصليون فى أن اللعنة ينطق بها الساحر القوي ، تقضى على حياة اللعين وإن يكن منه على بعد مائة ميل ؛ وبدأت العقيدة فى السحر فى أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم تزل عن الإنسان قط زوالاً تاماً ؛ وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتمائم ، أرسخ فى القديم من السحر نفسه وأثبت منه جذوراً فى النفوس ؛ ولما كانت التمام تُحدّد لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تميمة أثر فى ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تُثقل أنفسها بأحمال منها لكى يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفجأهم به الأيام (١٣٩) والأحجية إن هى إلا صورة متأخرة فى الظهور ، ومثّل من الأمثلة التى تعاصرنا ، من الأصنام أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوروبا يلبسون المُدكّسيات والتمائم ليستمدوا بواسطتها وقاية ومعوّنة من وراء الطبيعة ؛ إن تاريخ المدينة ليعلمنا فى كل خطوة من خطوات سيره ، كم تبلغ قشرة الحضارة من الرقة والوهن ، وكيف تقوم المدينة على شفاجر تُرف هارٍ فوق

قمة بركان لا يُحمد سعيه ، من وحشية بدائية وخرافة وجهل مكبوت ؛  
إن المدنية العصرية ليست سوى غطاء وُضِعَ وضِعاً على قمة العصور الوسطى ،  
ولا تزال تلك العصور ولن تزال باقية .

ولا يسع الفيلسوف إلا أن يتقبل راضياً هذا الفقر من الإنسان إلى  
معونة مما فوق الطبيعة تبعث في نفسه الطمأنينة ؛ ويجد لنفسه العزاء في  
علمه بأن الأدب المسرحي والعلوم تنشأ عن السحر ، كما ينشأ الشعر عن  
مذهب الروحانية ؛ فقد بين لنا « فريزر » Frazer - في شيء من المبالغة  
لا نستغرب به من مبدع موهوب - أن أجداد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات  
السحر ؛ لأنه كلما أخفق الساحر في سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافاً  
لقانون من قوانين الطبيعة ، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطبيعية في  
إحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر ؛ ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود  
وترجح كفتها شيئاً فشيئاً ، ولو أن الساحر كان دائماً يخفي هذه الوسائل  
الطبيعية ليحتفظ بمكانته عند الناس ، ما استطاع إلى إخفائها من سبيل ،  
بأن يعزو الظاهرة التي أحدثها للسحر الذي استمدده من القوى الخارقة  
للطبيعة - وهذا شبيه جداً بأهل هذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعي  
لوصفات وعقاقير سحرية ؛ وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا  
الطبيب والصيدلي ، وعالم المعادن ، وعالم الفلك (١٤٠) .

لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها في سائر ضروب العلماء ؛ ذلك  
لأنه لما تعددت ظقوس الدين وتعددت ، لم يعد الرجل العادي يقدر على استيعابها  
جميعاً والإلمام بها جميعاً ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها في مهام  
الدين ومحافله ؛ وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الدهول  
الروحي وتلقي الوحي وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح  
أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى ما فيه نفع الإنسان ؛ ولما كان  
هذا الضرب من العلم والمهارة هو في رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعاً ،

ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها في حياة الإنسان عند كل منعطف في الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ؛ وجعل الكاهن ( أو القسيس ) منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندى المقاتل في سيادة الناس والإمساك بزمامهم ، حتى لقد راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا في التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوروبا في العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقاً ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسي ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات ؛ فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو الأعياب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ؛ نعم إن الكاهن قد أضرَّ الناس بإبقائه على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة ، لكنه مع ذلك عمل على حصر الخرافة في نطاق ضيق ، وكثيراً ما كان يحمل الناس على إهمال شأنها ؛ وهو الذي لقن الناس بداية التعليم والهديب ، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافي الإنساني المتزايد ؛ وكان عزاء للضعيف في استغلال القوى له استغلالاً لم يكن عنه منصرف ولا محيص ؛ كما أصبح الفعل الفعال الذي أعان الدين على تغذية الفنون ، وتدعيم بناء الأخلاق الإنسانية المترنح بدعامة من القوة العليا ؛ فلو لم يجد الناس بينهم كاهناً لخلقوه لأنفسهم خلقاً .

#### ٤ - مهمة الدين الخلقية

الدين والحكومات - المهرمات الجنسية - تأخر الدين - التحول العلماني

الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمهرمات ؛ فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة ، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع ( أو يريد الكهنة ) بقاءها ؛ فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب ، يضطره اضطراراً أن يذعن للقيود

التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعاً رقيقاً طاهراً  
وليس شيء كالتخوف من الآلهة - وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد  
قديماً فأنشأ في نفسه الضمير - أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي لا تتفق  
وطبيعته إخضاعاً مطرداً صامتاً ؛ فأنظمة الملكية والزواج تتوقف إلى حد ما  
على العقوبات الدينية وهي تميل إلى فقدان قوتها في العصور التي يسود فيها  
الشك الديني ؛ بل الحكومة نفسها التي هي أهم أداة اجتماعية اصطنعها  
الإنسان ، وأبعد أداة عن طبيعة الإنسان ، كثيراً ما استعانت بالتقوى  
وبالكاهن ، كما فعل أذكيا الهراطقة مثل نابليون وموسوليني اللذين لم يلبثا  
أن كشفنا عن هذه الحقيقة ؛ ومن هنا كان ثمة « ميل إلى قيام دولة دينية  
كلما نشأت الدساتير » (١٤١) ؛ فلئن كانت قوة الرئيس البدائي تستمد الزيادة  
من السحر والعرافة ، فإن حكومتنا (\*) نفسها تستمد بعض القوة من اعترافها  
السنوي « بإله المهاجرين » .

وأطلق أهل « بولنيزيا » كلمة « تابو » ( ومعناها التحريم ) على ما يحرمه  
الدين ؛ فلما تقدمت المجتمعات البدائية بعض الشيء ، اصطنعت هذه  
الحُرُمات الدينية مكانة هي التي أصبحت في ظل المدنية مكانة القوانين ؛  
وكانت صيغة التحريم عادةً سالبة : فبعض الأفعال وبعض الأشياء أعلن  
عنها أنها « مقدسة » أو « نجسة » وكان اللفظان في الواقع يعنيان نذيراً  
واحداً ، وهو أن تلك الأفعال أو الأشياء لا يجوز لمسها ؛ « فتابوت العهد »  
مثلاً كان محرماً ، ويُروى عن « عزى » أنه سقط صعباً عند لَمْسِهِ  
لمنعه من السقوط (١٤٢) ؛ ويؤكد لنا « ديودورس » عن المصريين القدماء  
أنهم أكل بعضهم بعضاً إبان المجاعة ، فذلك أثر عندهم من الاعتداء  
على تحريم أكل الحيوان الذي اتخذته القبيلة طوطماً لها (١٤٣) ؛ وإذك  
لنجد في معظم الجماعات البدائية عدداً كبيراً جداً من هذه المحرّمات ،  
فكلمات معينة وأسماء معينة ما كان لها قط أن تُنطق ، وأيام معينة

(\*) يقصد الولايات المتحدة . (المرب)

وفصول معينة كانت من المحرمات بمعنى أن القتل لم يكن يؤذن به خلالها ؛  
وكل معرفة البدائين بحقائق الغذاء ، وبعض جهلهم بتلك الحقائق ، كان  
سبيلها إليهم تحريمات معينة أقامها الناس على ألوان الطعام ، فهم لم يلتقوا  
ببادئ الصحة عن طريق العلم أو عن طريق الطب العلماني بقدر ما لُقنوها  
عن طريق الدين .

وكانت المرأة أهم ما اتجه إليه التحريم عند البدائين فآلاف الحرافات  
نشأت عن المرأة لتجعلها ، آنا بعد آن ، مُجَرَّمَة اللمس ، خطيرة ،  
« نجسة » ؛ إن منشئ الأساطير في أنحاء العالم لم يكونوا أزواجاً موفّقين ،  
لأنهم متفقون جميعاً على أن المرأة أساس الشر كله ، فلم يقتصر هذا الرأي  
على الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل تجاوزهما إلى مئات من الأساطير الوثنية ؛  
وأدق التحريمات البدائية كان خاصاً بالمرأة إبان حيضها ، فكل من لمسها  
أو كل ما لمسها في هذه الفترة فقد فضيلته إن كان إنساناً ، وضاعت  
فائدته إن كان غير ذلك ؛ فحرم « الماكوزى » Macusi من أهل غيانة  
البريطانية على نسائهم أن يستحممن إبان حيضهن خشية أن يُسَمَّن الماء ،  
كما حرموا عليهن الذهاب إلى الغابة في مثل هذه الفترات ، حتى لا تعضهن  
الثعابين غراماً بهن (١٤٥) ؛ حتى الولادة كانت عندهم نجسة ، وكان على  
الأم بعدها أن تطهر نفسها في كثير جداً من الطقوس الدينية ؛ والعلاقة  
الجنسية حرام في معظم القبائل البدائية ، ليس فقط إبان فترات الحيض ، بل  
كذلك أثناء الحمل والرضاعة ، ولعل هذه التحريمات قد أنشأها النساء  
أنفسهن بما لهن من إدراك سليم وما يبغين لأنفسهن من وقاية وراحة ، لكن  
الأصول سرعان ما تُنسى ، وتنظر المرأة فإذا هي « مشوبة » وإذا هي  
« نجسة » ؛ وانتهى بها الأمر إلى أن توافق الرجل على وجهة نظره ،  
وراحت تشعر بالعار في حيضها ، بل في حملها ؛ ومن التحريمات وأمثالها  
نشأ الحياء ونشأ الشعور بالخطيئة ، والنظر إلى العلاقة الجنسية على أنها نجاسة ،  
وكذلك نشأ التقشف وعزوبة الرهبان ونشأ إخضاع النساء .

ليس الدين أساس الأخلاق ، لكنه عون لها ، فقد يمكن تصور الأخلاق ،

بغير دين ، وليس بالأمر النادر أن تتطور الأخلاق في طريقها إلى التقدم  
بينما يبقى الدين لا يآبه لها ، أو يقاومها مقاومة عنيدة ؛ ففي الجماعات الأولى ،  
وفي بعض الجماعات المتأخرة ، كانت الأخلاق فيما يظهر على أتم استقلال  
عن الدين ، وفي مثل هذه الحالة لا يُعنى الدين بقواعد السلوك ، بل يُعنى  
بالسحر والطقوس وتقديم القرابين ، والرجل الطيب عنده هو من يؤدي  
محافل الدين أداء المطيع ، ويمدها بماله في ولاء وإخلاص ؛ والدين بصفة  
عامة لا يرعى الخير المطلق ( إذ ليس هناك خير مطلق ) ، بل يرعى معايير  
السلوك التي وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؛ وهو  
كالقانون يلتفت إلى الماضي ليستمد منه أحكامه ، وهو قين أن يتخلف في  
الطريق كلما تغيرت الظروف وتغيرت معها الأخلاق ؛ فقد تعلم الإغريق  
مع الزمن أن يمجّوا مضاجعة المحارم ، مع أن أساطيرهم كانت ما تزال تمجد  
الآلهة الذين يفعلون ذلك ، والمسيحيون يصطنعون نظام الزوجة الواحدة بينما  
إنجيلهم يخلل تعدد الزوجات ؛ وامتنع الرق امتناعاً تاماً بينما المتدينون كانوا  
يدافعون عن قيامه بشواهد من الإنجيل لا تُنقض ؛ وفي يومنا هذا نرى  
الكنيسة تقاتل قتال الأبطال لتقيم تشريعاً خلقياً قضت عليه الثورة الصناعية  
قضاء مبرماً لاشك فيه ؛ فالعوامل الأرضية هي التي تسود آخر الأمر ،  
والأخلاق تتواءم بين نفسها وبين المستحدثات الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، ثم  
يتحرك الدين كارهاً فيوفق بين نفسه وبين الأخلاق الجديدة (\*) ؛ إن  
الوظيفة الخلقية للدين هي أن يحافظ على القيم القائمة ، أكثر مما يخلق  
قيماً جديدة .

ومن هنا كان من علامات المراحل العليا في كل مدنية أن يحدث التجاذب  
بين الدين والمجتمع ؛ يبدأ الدين بمدد من السخر يقدمه للناس في حيرتهم وارتباكهم ؛  
ثم يصعد إلى قمة مجده بمدد من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتعجب هذه

( \* ) مثال ذلك ضبط النسل الذي أحدثه الانقلاب الصناعي في المدن ، ثم قبول  
الكنيسة لهذا الضبط في خطوات بطيئة .

الوحدة مُعَيَّنَةٌ أكبر العون للسياسة والفن ؛ ثم ينتهي بقال يفنى فيه فناء المنتحر دفاعاً عن قضية الماضي الخاسرة ؛ ذلك لأنه كلما تقدمت المعرفة أو تغيرت تغيراً متصلاً ، اصطدمت بالأساطير واللاهوت اللذين يتغيران تغيراً بطيئاً بطئاً لا يُحتمَل ؛ وعندئذ يشعر الناس برقابة رجال الدين على الفنون والآداب كأنها أغلال ثقيلة وحائل ذميمة ، ويتخذ التاريخ الفكري في مثل هذه المرحلة صبغة النزاع بين العلم والدين ؛ والأنظمة التي تبدأ في أيدي رجال الدين ، مثل القانون والعقاب ، والتربية والأخلاق ، والزواج والطلاق ، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية ، حتى ليعدها الدين أحياناً خارجة عليه ؛ والطبقات المستنيرة تطرح وراء ظهورها اللاهوت القديم ، ثم - بعد شيء من التردد - تطرح معه التشريع الخلقى ؛ عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين ، وترفع حركة التحرير إلى عبادة العقل عبادة المتفاني ، تكبو فيها يشبه الشلل الذي تسببه خيبة الأمل لإزاء كل عقيدة وكل فكرة ؛ ويتدهور السلوك الإنساني إذا ما سلب دعائمه الدينية ، فينقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية ؛ بل إن الحياة نفسها ، وقد حرمتها ما فيها من إيمان يبعث العزاء في النفوس ، تصبح عبثاً ثقيلًا للفقير الشاعر بفقره ، وللغنى الذي ملّ غناه . آن معاً ، وفي النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معاً في ميته واحدة كأنهما الجسد والروح ؛ على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين الناس إذ هم ينوعون تحت هذا العبء الفادح ، أسطورة تصب الأمل الإنساني في قالب جديد ، وتمد الجهد الإنساني بحماسة جديدة ، ثم تبنى مدينة جديدة بعد أن تنقضي قرون في حالة من الفوضى .